

القسم الرابع

**النعمة**

## معجزة الصحة

يا لها من نعمة مذهلة! كم هو جميل الصوت الذي أنقذ بائساً مثلي!

كنت ضائعاً من قبل، ولكنني وجدت نفسي الآن،

كنت أعمى من قبل، ولكنني أرى الآن.

علّمت النعمة قلبي أن يخاف، وهي ما بدد مخاوفي؛

كم بدت تلك النعمة ثمينة ساعة أن آمنت أول مرة!

وعبر ما مررت به من كثرة الأخطار، والمتاعب، والصعاب؛

كانت النعمة هي ما أنقذني، وما سيقودني إلى الديار.

وعندما نخلد في السماء، متألّقين كنور الشمس،

سنسبح الله إلى الأبد، كما فعلنا منذ البدء<sup>(1)</sup>.

إنّ أول كلمة ترتبط بكلمة النعمة، في هذه الترتيلة الإنجيلية

الأمريكية الشهيرة القديمة، تتمثل في كلمة (مذهلة). يذهلنا ما يخرج

عن النطاق الطبيعي للأمور، ما لا يمكن الإحاطة به من قبل؛ ما يعرف

(بالقوانين الطبيعية). سيتضح لاحقاً أنّ النعمة تُمثل ظاهرة شائعة، يمكن

الإحاطة بها إلى حدّ ما.

ولكنّ حقيقتها ستبقى غير قابلة للتفسير في الإطار المفاهيمي للعلوم

و(القوانين الطبيعية) التقليدية كما نفهمها، وستظل مندرجة في سياق ما

هو مذهل من المعجزات.

(1) انظر:

“Amazing Grace,” by John Newton (1725-1807).

يوجد عدد من الجوانب في الطب النفسي لا تتفك تذهلني، إضافة إلى الكثير من الأطباء النفسيين الآخرين. يتمثل أحدها في حقيقة أن مرضانا يكونون أصحاء من الناحية العقلية عادةً بما يثير الدهشة. ومن المؤلفين للأطباء المتخصصين في مجالات أخرى، أن يهتموا الأطباء النفسيين باتباع ما هو غير دقيق وغير علمي من المقاربات، في علاجهم للعصاب على سبيل المثال. تتمثل الحقيقة على النقيض من ذلك، في أن الأطباء النفسيين يحيطون بمسببات العصاب بما يفوق ما يعرفه الأطباء الآخرون عن الغالبية الساحقة من الأمراض البشرية الأخرى. يمكن، عن طريق التحليل النفسي، الإحاطة بمسببات العصاب وتاريخه لدى المريض، بدقة يقلّ مثيلها في مجالات الطب الأخرى. ويمكن، إضافة إلى ذلك، أن يحيط الأطباء النفسيون بدقة بالجوانب كلّها المتعلقة بتطور أعراض العصاب، أو مشكلات السلوك. فضلاً على إحاطتهم - بالدقة ذاتها وبصورة كليّة - بكيفية علاج العصاب، أو الكيفية التي عولج بها في السابق.

أمّا ما لا نعرفه فيتتمثل - في الأحوال كلّها - في السبب الذي يجعل العصاب أقلّ حدّة، ويحول دون تطوّر الاعتيادي منه إلى حالة أكثر سوءاً، والسيئ إلى حالة ذهانية متدهورة كلاً. نكتشف على الدوام - بصورة حتمية - أن المريض قد تعرّض لصدمة أو صدمات من نوع معين، ليصاب بالعصاب نتيجة لذلك، ولكننا نجد أنّ تلك الصدمات تكون شديدة بما يفترض أن يجعل العصاب الناتج عنها - في الأحوال الاعتيادية - أكثر حدّة ممّا يعانيه المريض حقاً.

أتى رجل أعمال ناجح جداً، في سن الخامسة والثلاثين، لرؤيتي من جرّاء إصابته بعصاب لا يمكن وصفه بالحاد. كان طفلاً غير شرعي، ربّته أمه وحدها - وكانت صمّاء وبكماء - في طفولته المبكرة، في أحد أحياء شيكاغو الفقيرة. وقد عمدت الجهات المعنية - حين كان في سنّ الخامسة،

استناداً إلى أنّ أمه لم تكن مؤهّلة لتربيته في نظرها - إلى أخذه منها من دون سابق إنذار، ووضعه في أحد دور الرعاية، لينتقل إلى اثنين آخرين فيما بعد، ويلقى معاملة سيئة تفتقر إلى أي نوع من العطف.

أصيب فيما بعد، في سن الخامسة عشرة، بشلل جزئي نتيجة تعرّض أحد شرايين دماغه لتمزّق، بسبب تمُدّد أوعيته الدموية عند ولادته. ثمّ عمد، في سن السادسة عشرة، إلى مغادرة آخر دور الرعاية التي سكنها، وبدأ العيش وحده. وحين بلغ السابعة عشرة من العمر، سُجِن لتعدّيه بصورة وحشية على أحد الأشخاص، من دون أي مبرر، ولم يتلقَ أيّ علاج نفسي في السجن.

قامت السلطات، بُعيد إطلاق سراحه من السجن الذي أمضى فيه ستة أشهر مملة، بتوظيفه في عمل ثانوي بوصفه مشرفاً على مخزن في إحدى الشركات الصغيرة. لم يكن لأيّ طبيب نفسي، أو متخصص في علم الاجتماع - في العالم بأسره - أن يتنبأ بأن مستقبله سيكون مشرقاً بأيّ من الصور. أضحى الرجل - في الأحوال كلّها - في غضون ثلاث سنوات، أصغر رئيس قسم في تاريخ الشركة، ليغادرها، بعد مضيّ خمس سنوات وزواجه من مديرة أخرى، وينجح في عمله الخاص، ويصبح من الأثرياء في نهاية المطاف. أمكن لي أن أصفه - إضافة إلى ذلك، حين قصّني طلباً للعلاج - بالأب المحب الصالح المفكّر المثقّف ذاتياً، والرجل البارز في المجتمع، والفنان البارع. كيف حدث ذلك كلّهُ؟ ومتى؟ ولماذا؟ وأين؟ لا يمكنني أن أعرف الإجابة في سياق ما هو منطقي من المفاهيم. تمكّنت بالتعاون معه، وفي إطار العمل الاعتيادي على تتبع مصادر الخل وأثاره - من أن أحدّد بدقة مسببات عصابه غير الحاد، وأن أعالجه، إلا أنّنا عجزنا - في الأحوال كلّها، وبأيّ من الأشكال - عن تحديد أسباب نجاحه غير المتوقع.

تم إيراد هذه الحالة بدقة؛ لأنّ الصدمات الكبيرة التي تعرّض لها الرجل كانت مؤثّرة جداً، ولأنّ نجاحه كان جلياً على حدّ سواء. تكون صدمات الطفولة، في الغالبية الساحقة من الحالات، أقلّ في وضوحها (مع أنّها تكون عادةً مُدمّرةً بالقدر ذاته)، ولا تكون الدلائل على صحة المريض بتلك القوة، على الرغم من أنّ النمط يكون واحداً في الأساس. فعلى سبيل المثال، يندر أن يصادف الطبيب مرضى أقلّ سلامة نفسياً من ذويهم. نعلم جيداً لماذا يمرض الناس نفسياً. أمّا الأمر الذي لا نفهمه، فيتمثّل في السبب الذي يجعل الناس يتجاوزون صدمات حياتهم بتلك الصورة. نعلم على وجه الدقة أسباب محاولة أشخاص معينين الانتحار، ولكننا نجهل - في سياق المفاهيم المنطقية - السبب الذي يمنع غيرهم من القيام بذلك. يتمثّل كلّ ما يمكننا قوله في وجود قوة لا نفهم كُنْهها بصورة تامة، تعمل دائماً كما يبدو، على رعاية الصحة النفسية لمعظم الناس وإغنائها، حتّى في أفسى الظروف وأعتاها.

وعلى الرغم من أنّ العمليات المتعلقة بالأمراض النفسية، لا ترتبط غالباً بتلك المتعلقة بالأمراض الجسدية، فإنّ النقيض من ذلك يحدث في مسار حديثنا هذا؛ إذ نعلم عن مُسبّبات الأمراض الجسدية، ما يفوق معطياتنا عمّا يجعل الإنسان صحيحاً من الناحية الجسدية بكثير. سلّ أيّ طبيب عمّا يُسبّب (التهاب السحايا بالمكورة السحائية)، وسيرد عليك على الفور، قائلًا: «المكورة السحائية بالطبع». توجد مشكلة هنا ولا شكّ. لو قمّت في هذا الشتاء مثلاً، بأخذ عينات يومية من حناجر سكان القرية الصغيرة التي أقطنها، لاكتشفت أنّ البكتيريا المُسبّبة لذلك المرض موجودة في حناجر تسعة أشخاص، من كلّ عشرة تقريباً. ومع ذلك، لم يصب أيّ من سكان القرية (بالتهاب السحايا بالمكورة السحائية) منذ سنوات كثيرة، ولا يُرجّح أن يُصاب به أحد هذا الشتاء أيضاً. فما الذي يحدث هنا؟

يُعدُّ ذلك المرض نادراً بصورة نسبية، ولكنَّ العامل المُسبِّب له يشيع بصورة كبيرة جداً. ويستخدم الأطباء مفهوم المقاومة لتفسير هذه الظاهرة، ويفترضون أنَّ الجسم يملك مجموعة من الدفاعات التي تقاوم غزوه من قبل المكورة السحائية، ناهيك عن مجموعة شاملة من البكتيريات الأخرى المُسبِّبة للأمراض. لا شكَّ في صحة ذلك؛ إذ نعلم جيداً بخصوص تلك الدفاعات، وكيفية عملها. ولكنَّ الكثير من الأسئلة الأخرى تظلُّ قائمة. وفي الوقت الذي قد يموت فيه بعض الأشخاص من التهاب السحايا في هذا الشتاء من جرَّاء ضعف مقاومتهم، فإنَّ الغالبية ستكون بمنأى عن ذلك، لعدم وجود خلل في أنظمة مقاومتها. ومع أنَّه يمكننا القول بكلِّ ثقة إنَّ المكورة السحائية كانت سبب موتهم، فإنَّ ذلك سيكون سطحياً بوضوح، حيث سنجهل - بصورة أكثر عمقاً - المُسبِّب الأكثر شمولاً لوفاتهم، وسنقول غالباً إنَّ القوى التي تحمي حياتنا عادةً، قد فشلت في حمايتهم بصورة ما. وعلى الرغم من أنَّ مفهوم المقاومة يُطبَّق بالصورة الأكثر شيوعاً على الأمراض المعدية، مثل التهاب السحايا، فإنَّه قد يُطبَّق أيضاً على الأمراض الجسدية كلها بطريقة أو بأخرى، باستثناء أننا لا نملك أيَّ فكرة تقريباً - فيما يتعلَّق بالأمراض غير المعدية - عن كيفية عمل المقاومة.

قد يعاني شخص ما - مثلاً - التهاب القولون التقرُّحي غير الحاد بصورة نسبية (يُمثَّل اضطراباً جسدياً نفسياً بوجه عام) ليشفى منه بصورة تامة، ويواصل العيش من دون الإصابة به مرَّةً أُخرى. وقد يصيب المرض شخصاً آخر ويصبح مزمناً، ويؤدي إلى تعطيل حياته، في حين قد يصيب ثالثاً بصورة خطيرة، ويؤدي إلى موته سريعاً، حتَّى في مراحلهِ الأولى. يبدو المرض واحداً في الحالات الثلاث، ولكنَّ النتيجة مختلفة جداً. فما سبب ذلك؟

لا فكرة لدينا عن ذلك، ولا يمكن أن نقول شيئاً باستثناء أن أشخاصاً ذوي أنماط معينة من الشخصيات، قد يلاقون صعوبات عدّة في مقاومة المرض، على النقيض من الغالبية الساحقة منّا. فكيف يحدث ذلك؟ لا ندري بكلّ بساطة. ولكن يمكن طرح مثل هذه الأسئلة، بحيث تتناول الأمراض كلّها تقريباً، بما في ذلك أكثرها شيوعاً، مثل: النوبات القلبية، والجلطات، والسرطان، والقرحات المعدية. وبوجه عام، بدأ عدد متزايد من المفكرين يشير إلى أن الأمراض كلّها تقريباً جسدية نفسية، وأنّ للعامل النفسي علاقة - بطريقة ما - بما يمكن أن يصيب نظام المقاومة من خلل بأشكاله المتعدّدة. ولكنّ الشيء المذهل لا يتمثّل حقّاً في ذلك الخلل الذي يصيب نظام المقاومة، بل في مدى الجودة التي يعمل بها ذلك النظام. ففي الأحوال العادية، يجدر بالبكتيريا أن تأكلنا ونحن أحياء، وبالسرطان أن يفينا، وبالشحوم والجلطات أن تسدّ أوعيتنا، وبالحموض أن تأكلنا.

لا يتمثّل ما هو مميّز في مرضنا وموتنا بالتأكيد، بل في أنّنا لا نمرض عادةً كثيراً، ولا نموت سريعاً. ومن ثمّ، يمكننا أن نقول عن الأمراض الجسدية ما قلناه عن الأمراض النفسية؛ إذ توجد قوة، لا نفهم كُنْهها بصورة تامة، تعمل دائماً كما يبدو، على رعاية الصحة الجسدية لمعظم الناس وإغنائها، حتّى في أقسى الظروف وأعتها.

من جانب آخر، تثير مسألة التعرّض للحوادث أسئلة مثيرة أخرى. فقد مرّ الكثير من الأطباء، ومعظم الأطباء النفسيين، بالتجربة المتمثّلة في مواجهة ظاهرة التعرّض للحوادث. أمّا المثال الأكثر درامية، من بين الأمثلة الكثيرة التي صادفتها في أثناء عملي، فهو ذلك الذي يُشير إلى حالة طفل في سن الرابعة عشرة، كُلفت بمعاينته تمهيداً لإدخاله أحد مراكز علاج الأحداث.

كانت أمه قد توفيت في شهر نوفمبر، حين كان في عامه الثامن. ثم وقع من على سلم، في الشهر ذاته من عامه التاسع، ليكسر عضده. وفي الشهر نفسه من عامه العاشر تعرّض لحادث عندما كان يركب درّاجته، ليصاب بكسر في الجمجمة، وارتجاج خطير في المخ. وكذا الحال في الشهر نفسه من عامه الحادي عشر؛ إذ وقع من النافذة، ليكسر وركه. وزلت أيضاً قدمه وهو كان يتزلج على اللوح، في الشهر ذاته من عامه الثاني عشر، ليكسر معصمه من جرّاء ذلك. وأخيراً، صدمته سيارة في الشهر ذاته من عامه الثالث عشر، ليكسر حوضه.

لا يمكن لأحد أن يُشكك في أنّ ذلك الطفل قد تعرّض للكثير من الحوادث حقاً، أو في السبب الذي يجعل ذلك غريباً. ولكن، كيف وقعت تلك الحوادث؟ لم يتعمّد الطفل إيذاء نفسه. لم يكن متأثراً جداً بوفاة أمه، وقد أخبرني ببرود أنّه «تجاوز ذلك بصورة كلية». أعتقد أنّه - كي نبدأ فهم الكيفية التي وقعت بها تلك الحوادث - يجب علينا أن نطبّق مفهوم المقاومة على ظاهرة التعرّض للحوادث، كما نطبّقه على ظاهرة الإصابة بالأمراض، وأن نفكر في مصطلح مقاومة الحوادث، كما نفكر في تعرّضنا لها تماماً. لا يتمحور الأمر ببساطة حول تعرّض أناس معينين، في أوقات معينة من حياتهم، للحوادث، بل حول مقاومة معظمنا لها أيضاً بصورة تلقائية.

تعرّضت لحادث في أحد أيام الشتاء، وأنا في سنّ التاسعة، حين كنت أستصحب كتبي عائداً إلى المنزل من المدرسة عبر طريق مليء بالثلوج؛ إذ زلت قدمي، ووقعت على الأرض. وفي تلك اللحظة، انزلقت إحدى السيارات القادمة سريعاً، لتتوقّف تقريباً حيث بات رأسي بمحاذاة مقدمتها، وساقاي وجدعي أسفلها. سحبت نفسي سريعاً من أسفل السيارة، ثم ركضت بذعر إلى المنزل، من دون أن أصاب بأذى. ربّما لا تبدو تلك الحادثة بحدّ ذاتها لافتة جداً. وقد يقال إنني كنت محظوظاً لا أكثر. ولكن،

لو أضافناها إلى الكثير من الحوادث الأخرى: حين كنت أتفادى الاصطدام بالسيارات وأنا أسير مشياً على الأقدام، أو أركب الدرّاجة أو السيارة؛ حين كنت أقود السيارة وأتفادى بصعوبة صدم المشاة، أو راكبي الدرّاجات في الظلام؛ حين كنت أضغط على مكابح السيارة بصورة مفاجئة، لأتوقّف على بُعد بوصة أو اثنتين لا أكثر من عربة أخرى؛ حين كنت أتفادى بصعوبة الاصطدام بالأشجار في أثناء التزلُّج، أو أنجو من الوقوع من نافذة، أو أتفادى مضرب جولف يُلوّح به أحدهم بأعجوبة، بحيث يمرّ قريباً جداً من رأسي، وغير ذلك من الحوادث. فماذا يمكن تسمية ذلك؟ أهو نوع من السحر الذي يتحكّم في حياتي؟ لو تأمّل القراء في حياتهم الآن، لشككت في أنّ غالبيتهم سيجدون في تجاربهم الخاصة قصصاً مماثلة ومتكرّرة تجنّبوا فيها التعرّض للكوارث بأعجوبة، وعدداً من الحوادث التي كادت أن تقع، يفوق بكثير تلك التي وقعت فعلاً.

أعتقد، إضافة إلى ذلك، أنّ القراء سيقرّون بأنّ تجاربهم الخاصة التي نجوا فيها، وقاوموا الحوادث، لا تُمثّل نتيجة لأيّ عملية اتخذوا فيها القرارات بصورة واعية ومعمّدة. فهل من الممكن أن يكون معظمنا قد خضع حقاً لنوع السحر نفسه الذي يتحكّم في حياتهم؟ هل يمكن أن يكون ذلك الشطر من الترتيلة صحيحاً فعلاً: «كانت النعمة هي ما أنقذني»؟

قد يعتقد بعضهم أنه لا يوجد شيء مثير بشأن ذلك كله. وأنّ ما تحدّثنا عنه بمجمله لا يعدو كونه أكثر من مجرد مظهر لغريزة البقاء الطبيعية. ولكن، هل يمكن تسمية شيء ما دون أن تُفسّره؟ هل يجدر بنا أن نستخف بحقيقة أنّنا نملك غريزة للبقاء؛ لأنّنا أسمينها غريزة طبيعية لا أكثر؟

يُعدّ فهمنا لمنشأ الغرائز وطبيعتها ضئيلاً في أحسن الأحوال. وتُشير مسألة الحوادث إلى أنّ نزعنا إلى البقاء قد تكون مختلفة عن الغريزة - بل أكثر إعجازاً منها - التي تُمثّل ظاهرة إعجازية كبيرة

بحدّ ذاتها. وفي حين تكاد معلوماتنا لا تُذكر بخصوص الغرائز، فإننا نرى فعلاً أنّها تعمل ضمن حدود الفرد الذي يمتلكها. نعتقد إضافة إلى ذلك، أنّ مقاومة الاضطرابات النفسية أو الأمراض الجسدية تكمن في نطاق العقل اللاواعي، أو العمليات الجسدية، للفرد. وفي الأحوال كلّها، تستلزم الحوادث حدوث تفاعلات فيما بين الأفراد، أو بين الأفراد وما هو جامد من الأشياء. وعودة على ذي بدء، فهل نجوت من الدهس بعجلات العربية، حين كنت في سن التاسعة، بسبب غريزتي للبقاء، أو امتلاك السائق مقاومة غريزية لقتلي؟ ربّما لا نملك غريزة للحفاظ على حياتنا فحسب، بل للحفاظ على حياة الآخرين أيضاً.

لم يسبق لي أن مررت بهذه التجربة بصورة شخصية، إلا أنّ لديّ الكثير من الأصدقاء ممّن رأوا حوادث سيارات، خرج فيها (الضحايا) زحفاً من عرباتهم المحطّمة بما لا يمكن تمييزها، من دون أن يصابوا بأيّ أذى بصورة فعلية. لقد كانوا مذهولين جداً ممّا رأوه، وعبّروا عن ذلك بقولهم: «لا يمكننا أن ندرك على الإطلاق كيف يمكن لأيّ كان أن ينجو من مثل تلك الحوادث المروّعة، ناهيك عن عدم تعرّضه لما هو خطير من الإصابات!». فكيف يمكن لنا أن نُفسّر ذلك؟ أهو مجرد حظ لا أكثر؟

لقد ذُهِل أولئك الأصدقاء، الذين لا يُعدّون متدينين تحديداً؛ لأنّ أحسن الحظوظ لا يمكن أن ينجي أحداً من تلك الحوادث المروّعة بشهادتهم. وعلى الرغم من أنّهم لم يكونوا متدينين، ولم يُفكّروا بعمق حتى فيما كانوا يقولونه، فقد أدلى أصدقائي - في محاولتهم استيعاب ما حدث - بتعليقات، مثل: «حسناً، أعتقد أنّ التقدير يجبهم»، أو «إنّ أيامهم لم تنته بعد». وقد يعزو القارئ غموض تلك الحوادث إلى «من هو سعيد في الحظ لا أكثر»، أو «ما لا يمكن تفسيره من الهبات»، أو «عجائب القدر»، فيرضى بذلك التفسير، من دون أن يتأمّل أكثر في الأمر.

إذا أردنا اختبار تلك الحوادث بصورة إضافية، فإنَّ استخدام مفهومنا للغريزة بهدف تفسيرها لن يكون مرضياً على نحو كافٍ حسب اعتقادي. فهل تملك الآلة أو العربة الجامدة غريزة ما لتُحطِّم نفسها بطريقة تحفظ جسد الإنسان بداخلها؟ هل يملك الإنسان غريزة تُمكنه، في لحظة الاصطدام، من أن يُكيِّف جسده ليتلاءم مع ما يصيب العربة من أضرار، وينجو من الحادث الذي تعرَّض له؟ تتسم مثل تلك الأسئلة بالسخف، كما يبدو بصورة منطقية. وفي حين أفضل أن أستكشف - بصورة إضافية - إمكانية وجود تفسير لمثل تلك الحوادث، فمن الواضح أنَّ مفهومنا التقليدي للغريزة لن يكون مفيداً في هذا الصدد. وقد يُقدِّم مفهوم (التزامن) العون لنا بصورة أكبر. وفي الأحوال كلِّها، سيكون مفيداً قبل أن نبحث في ذلك المفهوم، اختبار بعض جوانب عمل الجزء الذي نسميه (اللاواعي) من العقل البشري.

## معجزة اللاوعي

أقوم في كثير من الأحيان، حين أبدأ العمل مع مريض جديد، برسم دائرة كبيرة. ثمَّ أعمد إلى رسم دائرة صغيرة في محيط الدائرة الكبيرة. بعد ذلك، أخاطب المريض وأنا أشير إلى الدائرة الصغيرة، قائلاً: «تمثِّل هذه عقلك الواعي، في حين يتمثِّل لواعيك في بقية الدائرة الكبيرة بمجملها، التي تعادل 95 في المئة أو أكثر من حجمها. لو عملت طويلاً بما يكفي، وجاهداً بما يكفي، كي تفهم نفسك؛ لاكتشفت أنَّ ذلك الجزء الفسيح من ذهنك، الذي لا تملك الكثير من الوعي به الآن، يتسم بما يفوق الخيال من الغنى».

تتمثِّل إحدى الطرائق التي نعلم عن طريقها بوجود هذا العالم الفسيح والخفي من الذهن، ومقدار ما يتمتع به من غنى؛ تتمثِّل بالتأكيد فيما نراه

من أحلام. جاء أحد الرجال البارزين لرؤيتي من جرّاء إصابته بالاكْتئاب منذ سنوات عدة. لم يكن يجد أيّ متعة في عمله، وقد كان يجهل سبب ذلك إلى حدّ بعيد. وعلى الرغم من أنّ والديه كانا فقيرين ومغمورين بصورة نسبية، فقد كان بعض أجداده مشهورين، إلا أنّ مريضني لم يكن يتحدث عنهم كثيراً. وقد تبين وجود عوامل عدّة وراء حالة الاكْتئاب التي اعترته.

لم نبدأ البحث في مسألة طموحه إلا بعد مضيّ بضعة أشهر. أخبرني في الجلسة التي تلت سابقتها التي أثرنا فيها مسألة الطموح أول مرّة، عن حلم رآه قبل ليلتين، قائلاً: «كُنّا في شقة مليئة بقطع الأثاث الضخمة. كنت أصغر بكثير ممّا أنا عليه الآن. طلب إليّ والدي أن أبجر عبر الخليج لأحضر قارباً تركه لسبب ما على جزيرة في الخليج. كنت مُتحمّساً للقيام بتلك الرحلة، وسألته عن الكيفية التي يمكن أن أجد بها القارب. انتحى بي جانباً، حيث كانت توجد واحدة من قطع الأثاث الضخمة جداً على وجه الخصوص: الخزانة ذات الحجم الهائل التي يبلغ طولها اثنتي عشرة قدماً على أقلّ تقدير، وتصل في ارتفاعها إلى السقف، وتحوي عشرين أو ثلاثين دُرْجاً ضخماً تقريباً، ثمّ أخبرني أنّه يمكنني إيجاد القارب إذا نظرت على امتداد حافة الخزانة». لم يكن معنى هذا الحلم واضحاً في بادئ الأمر، فسألته أن يخبرني عمّا قد ترمز إليه تلك الخزانة الضخمة بحسب اعتقاده. أجابني على الفور، قائلاً: «إنّها تجعلني أفكّر - لسبب ما؛ ضخامة حجمها - في الناووس (التابوت)». سألته مُجدّداً: «ماذا عن الأدرج؟». ابتسم ابتسامة عريضة، بصورة مفاجئة، ثمّ أجابني، قائلاً: «ربّما أردت أن أقتل أجدادي كافة. تجعلني تلك الأدرج أفكّر في ضريح أو مدفن للعائلة؛ إذ إنّ كلّاً منها كبير بما يكفي لاحتواء جثة بداخله».

بات معنى الحلم واضحاً الآن. فقد أوحى إليه حقّاً في صغره، استشراف مستقبله عند أضرحة أجداده المشهورين، وكان يتبع تلك الرؤية

ليعمل على تحقيق ذلك وبلوغ الشهرة. لقد أضنته تلك الرؤية، وتمنى أن يقتل أجداده سيكولوجياً؛ كي يتحرر منها.

يُشكّل هذا الحلم بالتأكيد حالة نموذجية لأبيّ من العاملين طويلاً في مجال تفسير الأحلام. وأودّ التركيز هنا على ما يُقدّمه من فائدة، في واحد من المناحي التي تجعله نموذجياً. بدأ هذا الرجل العمل على حلّ مشكلة تواجهه. وقد أنتج لا وعيه بصورة مباشرة نوعاً من الدراما التي أوضحت سبب مشكلته، السبب الذي لم يُدرِكه من قبل. فعل لا وعيه ذلك باستخدام رموز معينة، بطريقة لا تقلّ في رونقها عمّا يقوم به أكثر الكتاب المسرحيين إبداعاً. يصعب على المرء تخيّل أنّ بمقدور أيّ تجربة أخرى - في هذه المرحلة من علاجه - جعل الأمور واضحة لكلّ منّا، بقدر ذلك الحلم. بدا جلياً أنّ لا وعيه يرغب في مساعدته، ودفع عملنا قدماً، وقد فعل ذلك ببراعة تامة.

يعدّ المعالجون النفسيون تحليل الأحلام جزءاً مهماً من عملهم، ويُعزى سبب ذلك بدقّة إلى أنّها تكون مفيدة في معظم الأحيان. ولكن، يجب عليّ الإقرار بأنني لم أوفّق قطّ في إدراك مغزى الكثير من الأحلام، ومن المغربي لي أن أملك الجرأة؛ لأتمنّى على اللاوعي أن يتحلّى باللياقة التي تجعله يتحدّث إلينا بلغة أكثر وضوحاً! تبدو الرسالة دائماً - حين ننجح في تفسير ما نراه من أحلام - كأنّها قد صُمّمت لتعزيز نمونا الروحي. وتوفّر الأحلام التي قد تُفسّر، بحسب خبرتي وبصورة دائمة، ما هو مفيد من المعطيات لمن يراها. تتوافر هذه المعونة بأشكال عدّة، منها: التحذيرات من المتاعب الشخصية، وإرشادات الحلول التي نعجز عن إيجادها للمشكلات، والمؤشرات الملائمة التي نشعرنا بأننا مخطئون حين نعتقد أنّنا على صواب، والمؤشرات المشجعة لنا حين نكون على صواب ونعتقد أنّنا مخطئون، ومصادر المعطيات المهمة التي نفتقر إليها بخصوص

أنفسنا، والموجّهات التي تُوجّهنا حين نشعر بالضياغ، والمرشدات التي تُرشدنا إلى الطريق الذي ينبغي أن نسلكه حين نضل سبيلنا.

قد يتواصل اللاوعي معنا حين نكون مستيقظين بما لا يقل روعة وفائدة عن تواصله معنا حين نكون نائمين، وإن كان ذلك يتم بصورة مختلفة قليلاً، تتمثل فيما هو (تافه من الأفكار)، أو ما هو أبسط منها. لا نلتفت كثيراً إلى تلك الأفكار، كما هي الحال بالنسبة إلى الأحلام، وقد نهملها لأنها لا تُعدّ مهمّة في نظرنا. يعود إلى ذلك السبب في أنّ المرضى يُوجّهون مراراً، في أثناء خضوعهم للتحليل النفسي، إلى أن يُصرّحوا بكلّ ما يخطر على ذهنهم من أفكار، بغضّ النظر عمّا قد تبدو عليه - أوّل وهلة - من سخافة، أو عدم أهمية. فعلى سبيل المثال، كلّما تحدّث المريض، قائلاً: «إنّها فكرة سخيفة، ولكنّها لا تنفك تراودني؛ إنّها لا تعني شيئاً بالنسبة إليّ، ولكنك طالبتني بأن أخبرك بها»، عرفت أنّنا قد حقّقنا فائدة ملموسة، وأنّ المريض قد تلقى تَوْاً رسالة قيمة جداً من اللاوعي، رسالة ستُسلط الضوء على وضعه بصورة كبيرة. وفي حين تُزوّدنا تلك (الأفكار التافهة) عادةً بمعطيات عن أنفسنا، فقد تُزوّدنا أيضاً بما هو مؤثّر من المعطيات عن الآخرين، أو العالم الذي يقع خارج نطاق ذاتنا.

دعوني أصف تجربة تتعلّق بذهني - بوصفها مثلاً على رسائل (الأفكار التافهة) من اللاوعي، التي تعلمنا شيئاً عن الآخرين - مررت بها حينما كنت أعمل مع واحدة من المرضى. كانت شابة تعاني منذ مراهقتها المبكرة شعوراً متواصلًا بالدوار، والتوهّم أنّها قد تسقط في أيّ لحظة. لم يكتشف الأطباء أيّ سبب جسدي لذلك. كانت تبدو، بسبب ذلك الشعور، كأنّها تتمايل في مشيتها. كانت ذكية وساحرة جداً. وقد تعذّر عليها في بداية الأمر تكوين أيّ فكرة عن سبب شعورها بالدوار، الذي عجز العلاج النفسي عن شفائها منه سنوات عدّة، فأتت إليّ طلباً للعون.

بينما كنا ذا يوم في منتصف جلستنا الثالثة، وكانت تجلس بارتياح وتحدّث إليّ، خطرت فجأة كلمةٌ على بالي: بينوكيو (اسم دمية شهيرة). كنت أحاول التركيز على ما تقوله، فعمدت حالاً إلى تجاهل الكلمة، وإخراجها من نطاق وعيي. ولكنّها عادت مُجدّداً إلى ذهني في غضون دقيقة، على الرغم من محاولاتي كلّها، وقد كانت واضحة جداً، كأنّها كُتبت أمام عيني: (بينوكيو). شعرت بالضيق لذلك، وعملت على تجاهلها مرّة أخرى، وأرغمت نفسي على العودة بانتباهي إلى مريضتي. ومع ذلك، فقد عادت الكلمة إلى وعيي في غضون دقيقة أخرى، كأنّها خارجة عن إرادتي، وتطلب بطريقة ما أن يتم الإقرار بها. فكّرت أخيراً، قائلاً لنفسني: «انتظر لحظة، ربّما يكون من الأفضل - لأنّ هذه الكلمة «مصرّة» على الولوج في ذهنك - أن تتبّه لها؛ لأنك تعلم أنّها قد تكون مهمة، وأنّه يجب عليك أن تصفي إلى لا وعيك لتتأكد إذا كان يحاول أن يقول لك شيئاً ما». فعلت ذلك، ثمّ أردفت قائلاً: «بينوكيو! ما الذي يمكن أن تعنيه تلك الكلمة؟ لا تفترض بالتأكيد أنّ لها علاقة بمريضتك، أليس كذلك؟ لا تفترض أنّك تعنيها بتلك الكلمة، أليس كذلك؟ انتظر لحظة؛ هي جميلة كالدمية الصغيرة، وتلبس الأحمر، والأبيض، والأزرق دائماً كلّما أتت إلى هنا، وتسير بطريقة غريبة ومضحكة، كأنّها جندي خشبي مُتصلّب الرجلين. هذا هو الأمر إذن! إنّها دمية! إنّها (بينوكيو) بحق الله! إنّها دمية!».

تكشّفت مشكلة المرأة لي على الفور في صميمها؛ إذ لم تكن شخصاً حقيقياً، إنّما دمية خشبية مُتصلّبة صغيرة، تحاول أن تبدو كإنسان حقيقي، ولكنّها تخشى السقوط في أيّ لحظة، وتتهار لتُخلف كومة من الأخشاب والأسلاك. تكشّفت الحقائق الداعمة واحدة تلو الأخرى بصورة سريعة: كانت أمها مستبدة، وتتحكم فيها، و(تتلاعب بخيوطها) بصورة لا تُصدّق، وقد شعرت بالكثير من الفخار؛ لأنّها علّمت ابنتها دخول الحمام (بين عشية وضحاها). كانت إرادتها كلها مُكرّسة لتلبية توقعات الآخرين،

ووجب عليها دائماً أن تكون نظيفة، وأنيقة، ولائقة، ومرتبّة، تنطق بكلّ ما هو مناسب، وقد سعت بصورة محمومة لتلبية ما ينهال عليها من مطالب، وكانت، في نهاية المطاف، تقتصر تماماً إلى ما هو ذاتي من الحوافز، والقدرة على اتخاذ القرارات المستقلة.

قدّمت هذه الكلمة المهمّة - التي تشير إلى حالة مريضتي - نفسها إلى وعيي من دون أن أرحّب بها، أو أدعوها، أو أرغب فيها. لقد كان وجودها غريباً بالنسبة إليّ، وعديم الصلة بما كنت أقوم به، ويُسكّل إلهاء لا ضرورة له في نظري، وقد قاومتها في البداية، محاولاً مرّات عدّة التخلّص منها.

مثّلت تلك الكلمة - بما تتسم به من غرابة وإلحاح ظاهرين - علامة مميّزة لما يطرحه اللاوعي، وطريقته في تقديمه إلى العقل الواعي. يعود السبب بصورة جزئية إلى غرابة تلك الأفكار وإلحاحها، وإلى مقاومتها من قبل العقل الواعي، في نزوع (فرويد) ومؤيديه الأولين إلى النظر إلى اللاوعي بوصفه مركزاً لما هو بدائي، ولا اجتماعي، وشرير بداخلنا. يبدو الأمر كأنهم افترضوا، انطلاقاً من حقيقة أنّ وعينا يرفضها، أنّ نتاجات اللاوعي (سيئة) بالنتيجة. ونزعوا كذلك، استناداً إلى المبادئ ذاتها، إلى افتراض أنّ المرض النفسي يتأصل بصورة ما في اللاوعي، كشيطان يكمن في الأعماق السحيقة لذهننا. وقد تولّى (يونغ) مهمّة تصحيح تلك النظرة، باستخدام الكثير من الطرائق، بما في ذلك عبارة: (حكمة اللاوعي).

أكّدت تجربتي الخاصة صحة رأي (يونغ) في هذا السياق؛ ما دفعني إلى استنتاج أنّ المرض النفسي لا ينتج من اللاوعي، إنّما يشكّل عوضاً عن ذلك ظاهرة للوعي، أو نتيجة لوجود علاقة مضطربة بين الوعي واللاوعي. لتتأمّل مسألة الكبت على سبيل المثال. فقد اكتشف (فرويد) وجود رغبات جنسية ومشاعر عدائية لدى الكثير من مرضاه، الذين لم يدركوا وجودها، فأصابتهم بالمرض. وقد أدّى وجود تلك الرغبات والمشاعر في اللاوعي

إلى نشوء الفكرة المتمثلة في أنه يُسبب المرض النفسي. ولكن، لماذا تكمن تلك الرغبات والمشاعر في اللاوعي في المقام الأول؟ لماذا تُكَبَّت؟ يتمثل الجواب في أن العقل الواعي لا يرغب فيها. وتتمثل المشكلة في عدم الرغبة والتبرؤ هذين.

لا تكمن المشكلة في وجود مثل تلك المشاعر المعادية والجنسية لدى البشر، بل في امتلاكهم عقلاً واعياً، بالأحرى، لا يرغب غالباً في مواجهة تلك المشاعر، واحتمال ألم التعامل معها، ويُصِرُّ - إلى أبعد الحدود - على تجاهلها والتخلُّص منها.

تتبدى طريقة ثالثة عن طريق سلوكنا، وفيها يُظهِر اللاوعي نفسه، ويتحدَّث إلينا إذا كنَّا نهتم بالاستماع (وهو ما لا يحدث عادةً). أُشير في هذا الصدد إلى زلَّات اللسان وغيرها من (أخطاء) السلوك، أو (الزلَّات الفرويدية)، التي أوضح فرويد بصورة أولية، في كتابه (علم أمراض نفس الحياة اليومية)، أنَّها تُمثِّل تجلِّياتٍ للوعي. إنَّ استخدام فرويد مصطلح (علم أمراض النفس)؛ بهدف وصف تلك الظواهر، يشير مُجدِّداً إلى رؤيته السلبية للوعي، حيث يُعدُّ دوره هدماً، أو يرى فيه - على أقلِّ تقدير - شيطاناً رجيماً يحاول أن يوقعنا في الزلل، عوضاً عن رؤيته ملاكاً يعمل جاهداً لجعلنا صريحين بما يُحقِّق مصلحتنا.

حين يَزِلُّ المريض في أثناء خضوعه للعلاج النفسي، فإنَّ ذلك يفيد دائماً في عملية علاجه؛ إذ يكون عقل المريض الواعي في حينه منخرطاً في محاولة مقارعة العلاج، ويهدف بقوة إلى إخفاء طبيعة النفس الحقيقية عن المعالج، وعن الإدراك الذاتي. ثمَّ يتحد اللاوعي مع المعالج ليدفع المريض إلى الانفتاح، والصراحة، والحقيقة، والواقع، ويكافح لجعله يقول الأمور كما هي.

دعوني أذكر بعض الأمثلة على ذلك. أخذت مريضة دقيقة في مواعيدها - تعجز بصورة تامة عن الإقرار بمشاعر الغضب داخلها، وتفشل في التعبير عن الغضب بصراحة - أخذت تتأخر بضع دقائق عن مواعيد جلساتها. أخبرتها أنني أظنّ أنّ ذلك يعود إلى شعورها بشيء من الامتناع منّي، أو من العلاج، أو من كليتنا. أنكرت ذلك بشدة، مُوضّحة أنّ تأخيرها يعزى بصورة كلية إلى هذا الظرف أو ذاك، ومُعبّرة - في الوقت نفسه - عن تقديرها الكامل لي، واستعدادها المطلق لمتابعة العمل معي. عمدت المرأة، في الأمسية التي أعقبت تلك الجلسة، إلى دفع بيانات حساباتها الشهرية (فواتيرها)، بما فيها مستحقّاتي. وحين وصلني الشيك الذي أرسلته إليّ بلا توقيع، أعلمتها بذلك في الجلسة اللاحقة، مُعلّلاً ذلك بأنّها كانت تشعر بالغضب.

أجابتنى قائلة: «هذا سخيف! لم أغفل في حياتي قطّ عن توقيع أيّ شيك. تعلم كم أنا دقيقة في مثل هذه المسائل. من المستحيل ألاّ أكون قد وقّعت الشيك الذي يخصك». أريتها الشيك غير الموقع، لتنفجر في البكاء بصورة مفاجئة، على الرغم من أنّها كانت تُظهر الانضباط التام دائماً في جلساتها، وتنتحب قائلة: «ما الذي يحدث لي؟ أشعر بأنّني أَداعى، بأنّ لي شخصيتين». بدأت المرأة في خضّم معاناتها، وعلى ضوء إقرار وجود انفصام فعلي في شخصيتها، بدأت أول مرة في تقبُّل إمكانية أن تكون شاعرة بالغضب في جزء منها على أقلّ تقدير، ليتم بذلك القيام بالخطوة الأولى على طريق التقدّم في علاجها.

كان لديّ مريض آخر يعاني مشكلة تتعلّق بالغضب، حيث كان يعتقد أنّ من غير المقبول أن يشعر بالغضب من أيّ فرد من عائلته، أو أن يُعبّر عن ذلك الغضب. أخبرني عن أخته - لأنّها كانت تزوره في حينه - واصفاً إيّاها (باللطيفة جداً). وحدّثني - فيما بعد - في الجلسة عن حفلة عشاء

صغيرة سيقمها تلك الليلة، قائلاً: إن زوجين من جيرانه سيحضرانها، إضافة إلى أخت زوجته بالطبع. أخبرته بأنه قد أشار توّاً إلى أخته بأخت زوجته، فعلقَ مازحاً: «أفترض أنك ستقول لي إن هذه واحدة من الزلّات الفرويدية تلك». أجبته قائلاً: «أجل، سأفعل. يتمثّل ما يقوله لا وعيك في أنك لا تريدها أن تكون أختك، وأنّها لا تعني لك أكثر ممّا تعنيه أخت زوجتك، وأنك تكرهها كثيراً فعلاً». أجابني قائلاً: «لا أكرهها بالتأكيد كما تقول، ولكنّها لا تتوقّف عن التثرثرة، وأعلم أنّها لن تُفسح مجالاً لأحد كي يتحدث الليلة. أعتقد أنّها تُسبّب لي الحرج أحياناً». حقّق الرجل بذلك اختراقاً بسيطاً، كما في الحالة السابقة.

لا تُعبّر الزلّات جميعها عن العدائية أو المشاعر التي يتم إنكارها، ولكنّ ما يُعبّر منها عن تلك المشاعر يشمل السلبي والإيجابي منها، ويُظهر حقيقة الأمور، وعلى النقيض ممّا يطيب لنا أن نراها. أعتقد أنّ أكثر زلّات اللسان تأثيراً، ممّا صادفته في عملي، قد صدر عن شابة في زيارتها الأولى لي. أخبرتني أنّ والديها يتسمان بالبرود واللامبالاة، وأنهما ربّياها على المبادئ والقيم، ولكنّهما كانا يفتقران إلى العاطفة والاهتمام الحقيقي بها.

قدّمت نفسها إليّ على أنّها امرأة ناضجة، واثقة من نفسها، متحرّرة، مستقلّة بصورة استثنائية، وقد قصدتني للعلاج، على وفق تعبيرها؛ لأنّها «متفرّغة في الوقت الراهن، وتعتقد أنّ القليل من التحليل النفسي قد يُسهّم في تطوّرها الفكري». سألتها عن سبب تفرّغها في حينه، فأخبرتني أنّها تركت الجامعة توّاً؛ لأنّها حامل في الشهر الخامس. لم تكن ترغب في الزواج، وكانت تُفكّر في إمكانية عرض الطفل للتبني عقب ولادته، والتوجّه فيما بعد إلى أوروبا لمتابعة دراستها. سألتها عمّا إذا كانت قد أعلمت والد الطفل - الذي لم تره منذ أربعة أشهر - عن حملها، فأجابتني

قائلة: «أجل، تركت له رسالة قصيرة لأعلمه أنّ علاقتنا قد أثمرت عن طفل». شعرت بأنّها كانت تودّ إخباري، عوضاً عن ذلك، أنّها مجرد فتاة صغيرة متلهّفة للعاطفة، تختبئ خلف قناع المرأة المميّزة بصفاتهما، حملت في محاولة يائسة لاستجلاب عطف أمها بإنجاب طفل، والتحوّل إلى أم على حدّ سواء. لم أواجهها بزلتها؛ لأنّها لم تكن مهياًة قطّ لتقبّل حاجتها إلى تبعية أمها، أو النظر إلى تلك الحاجة بوصفها طبيعية. كانت تلك الزلّة، في الأحوال كلّها، مفيدة لها؛ لأنّها ساعدتني على إدراك أنّها لم تكن سوى طفلة صغيرة خائفة - في الحقيقة - تحتاج إلى تقبّل ما أمكن من الرعاية والحماية، وأبسط أشكال العناية مدّة طويلة من الزمن.

لم يكن أولئك المرضى الثلاثة يحاولون، عبر قيامهم بتلك الزلّات، إخفاء أنفسهم عنّي، بقدر ما يخفونها عن ذاتهم. كانت المريضة الأولى تعتقد حقاً بعدم وجود ذرّة من الامتعاض داخلها. وكان الثاني مقتنعاً تماماً أنّه لا يَكُنُّ أيّ ضغينة لأيّ من أفراد عائلته، في حين لم ترّ الأخيرة في نفسها إلاّ امرأة مميّزة بصفاتهما. تتحرف نظرتنا الذاتية الواعية إلى أنفسنا - على الدوام بصورة تقريبية؛ من جرّاء عدد من العوامل المعقّدة، وبدرجة أكبر أو أقلّ - عن حقيقة الشخص الذي نكونه فعلياً. نملك على الدوام ما هو أقلّ أو أكبر من القدرة التي نعتقد أنّنا نملكها.

وفي الأحوال كلّها، يعلم اللاوعي مَنْ نكون حقيقة. وتتمثّل مهمّة كبيرة ورئيسية، في سياق عملية تطوّر المرء الروحي، في العمل المتواصل لجعل النظرة الذاتية الواعية إلى النفس منسجمة بصورة أكبر، وأكثر إيجابية، مع الواقع. وحين يُنجز جزء كبير من تلك المهمة الدائمة بسرعة نسبية، من يمكن ذلك أيضاً بالعلاج النفسي المكثّف، فإنّ المرء يشعر غالباً كأنّه قد (وُلد من جديد)، ويتحدّث المريض ببهجة حقيقية، عن التغيير المؤثّر في وعيه، قائلاً: «لم أعد الشخص الذي كنته في السابق. لقد أصبحت

شخصاً جديداً ومختلفاً اختلافاً كلياً». لا يجد ذلك الشخص حقيقةً أيَّ صعوبة في فهم كلمات الترتيلة: «كنت ضائعاً من قبل، ولكنني وجدت نفسي الآن، كنت أعمى من قبل، ولكنني أرى الآن».

لذا، يجب علينا إذا عرفنا أنفسنا عبر نظرتنا الذاتية، أو وعينا أو إدراكنا الذاتيين، أن نقول عن اللاوعي إنه يُمثّل جزءاً منا، ويفوقنا حكمة. تحدّثنا من قبل عن (حكمة اللاوعي) هذه بصورة رئيسة، في سياق المعرفة والبوح الذاتيين. وقد حاولت، عن طريق المثال الذي أوردته عن مريضتي التي أشار لا وعيي إليها بـ (بينوكيو)، أن أُبين أنّ اللاوعي يفوقنا حكمة فيما يتعلّق بالآخرين، فضلاً عن أنفسنا. تتمثّل الحقيقة في أنّ لا وعينا يفوقنا حكمة فيما يتعلّق بكلّ شيء. فبعد وصولي وزوجتي إلى سنغافورة مساءً أوّل مرّة في إجازة، غادرنا الفندق لتتجوّل في المدينة قليلاً. وقد وصلنا بعد وقت قصير إلى ساحة كبيرة مفتوحة، أمكننا - بعد جهد - أن نُميّز عند نهايتها في العتمة، ما بدا مبنى كبيراً في حجمه. تحدّثت زوجتي قائلة: «أتساءل، ما ذلك المبنى؟». أجبتها على الفور بصورة عفوية، وبيقين مطلق، قائلاً: «أوه، إنه نادي سنغافورة للكريكيت». خرجت الكلمات من فمي بصورة مفاجئة وتلقائية، لأندم على الفور لقولها. لم أستند إلى أيّ أساس قط، للإجابة بما لم أكن أعرفه. لم يسبق لي أن أتيت إلى سنغافورة من قبل، ناهيك عن رؤية نادٍ للكريكيت في هذه العتمة الشديدة تحديداً. ولكنني شعرت بالذهول لما رأيته؛ فما إن واصلنا المسير إلى الطرف الآخر من المبنى، حتّى وجدنا عند مدخله لافتة نحاسية كُتِبَ عليها بوضوح «نادي سنغافورة للكريكيت»!

فكيف عرفت هذا الذي لم أكن أعرفه؟! يتمثّل واحد من التفسيرات المحتملة في نظرية (يونغ) عن (اللاوعي الجمعي)، التي نرث على وفقها

حكمة أجدادنا وتجربتهم، من دون أن نمرّ بتجاربهم نفسها بصورة شخصية.

وفي حين قد يبدو هذا النوع من المعرفة غريباً للعقل العلمي، فإنه يحضر، بما يتسم بالغرابة على حدّ سواء، في لغتنا اليومية السائدة. لنأخذ كلمة (الإقرار) على سبيل المثال. فعندما نقرأ كتاباً ما، ونصادف فكرة أو نظرية تروق لنا، وتُعبّر عن شيء مألوف بالنسبة إلينا، فإننا (نُقرّ) بصحتها حالاً، على الرغم من احتمالية أننا لم نُفكر فيها من قبل بصورة واعية. يمثّل ذلك (إعادة معرفتها)، وكأننا كنا نعرفها في يوم ما، ثمّ نسيناها، ثمّ تعرّفناها مرة أخرى كأنّها صديق قديم لنا. يبدو الأمر كأنّ المعرفة والحكمة كانتا تكمنان في أذهاننا لتمثّل الحقيقة، حين نتعلّم شيئاً جديداً ما، في أنّنا نعيد اكتشاف ذلك الشيء - لا أكثر، بصورة فعلية - الذي كان متضمّناً في أذهاننا منذ زمن بعيد. ينطبق الأمر نفسه على كلمة (التعليم)، التي اشتقّتها الإنجليزية من كلمة لاتينية، وتعني ترجمتها الحرفية (الاستخراج). حين نُعلّم الناس - لو أردنا أن نستخدم الكلمة بمعناها الحرفي - فإننا لا نقوم بتلقينهم شيئاً جديداً، إنّما نستخرجه منهم، بالأحرى، وننقله من اللاوعي إلى وعيهم. يعني ذلك، بالنتيجة، أنّهم يملكون المعرفة منذ أمد بعيد.

ولكن، ما مصدر ذلك الجزء منّا الذي يفوقنا حكمة؟ لا نعلم الإجابة حقاً. تشير نظرية (يونغ)، عن اللاوعي الجمعي، إلى أنّ حكمتنا موروثية. وتشير أيضاً تجارب علمية حديثة، تختبر الجينات والذاكرة، إلى أنّه من الممكن بصورة فعلية، توريث المعرفة التي تُخزّن على هيئة شفرات للحمض النووي في الخلايا. يُذكر أنّ مفهوم التخزين الكيميائي للمعطيات، يتيح لنا بدء فهم الكيفية التي قد تُخزّن بها المعطيات التي يحويها ذهن الإنسان، في بضع بوصات مكعبية من مادة الدماغ. وبذلك، يترك هذا النموذج المعقّد

الاستثنائي الذي يسمح بتخزين المعطيات الموروثة والتجريبية في مثل ذلك الحجم الصغير من الدماغ؛ يترك أكثر الأسئلة المحيرة للذهن بلا أجوبة.

حين نتأمل في تقنية ذلك النموذج، وكيف يمكن بناؤه، وكيفية تزامنه، وتوقيت حدوثه، وكيفية تطوره...، فإننا نقف مشدوهين أمام ظاهرة العقل البشري. وفي واقع الأمر، لا يختلف التأمل في تلك المسائل بما يذكر عن التأمل في مسائل، مثل تحكّم القدير في الكون، وإدارته له عن طريق ما لا يُعدّ من ملائكته. ومن ثمّ، فإنّ العقل البشري الذي يملك الجرأة أحياناً للاعتقاد أن المعجزات غير موجودة، يُمثّل معجزة بحدّ ذاته.

### معجزة السرديبية<sup>(1)</sup>

ناقشنا فيما مضى الحكمة الاستثنائية لللاوعي، الذي ينتج عن أحد أجزاء الدماغ - يمكن فهم كُنْهه - ويعمل على وفق تقنية إعجازية، لكننا ما نزال نفتقر إلى تفسير يمكن تصوُّره لما يُسمّى (الظواهر الروحية)، التي ترتبط بوضوح بعمل اللاوعي. أظهر كلُّ من الدكتور مونتاغيو أولمان، والبروفيسور ستانلي كرينر، عبر سلسلة من التجارب المعقّدة التي أجريها - بصورة قاطعة - أنّه يمكن لفرد مستيقظ أن ينقل، برتابة وتكرار، صوراً إلى فرد آخر نائم، على بُعد غرف منه، بحيث يراها النائم في أحلامه<sup>(2)</sup>. لا يحدث مثل ذلك النقل في المختبر فقط؛ إذ يُعدّ مألوفاً، على سبيل المثال، لشخصين يعرفان بعضهما بعضاً، أن يريا الأحلام ذاتها بصورة مستقلة، أو ما يُعدُّ متشابهاً منها إلى حدِّ بعيد. فكيف يحدث ذلك؟ لا نملك أيّ فكرة حيال هذا الأمر. ولكنه يحدث في مختلف الأحوال.

1) "An Experimental Approach to Dreams and Telepathy: II Report of Three Studies," *American Journal of Psychiatry* (March 1970), pp. 1282-89.

2) أحثّ كلٌّ من لا يزال غير مقتنع إلى الآن بحقيقة (الإدراك الحسي الفائق)، أو يشكّك في صحتها العلمية، على قراءة هذا المقال.

أُثبتت صحة تلك الحوادث علمياً، في سياق ما تتسم به من أرجحية. فقد رأيت حلماً في إحدى الليالي، يتضمّن سلسلة من صور سبع. ثمّ علمت لاحقاً أنّ صديقاً لي كان قد استيقظ من حلم - في حين كان نائماً في منزلي قبل ليلتين من ذلك - رأى فيه الصور السبع ذاتها، على وفق التسلسل نفسه. لم نتمكّن من تحديد أيّ سبب لتلك الحادثة، أو ربط حلمنا بأيّ تجربة مررنا بها أو اشتركنا فيها، أو تفسير ذلك الحلم بأيّ طريقة ذات مغزى. علمنا أنّ شيئاً استثنائياً ما قد حدث. كان ذهني يحظى بملايين الصور التي يمكن أن أراها في الحلم. وتعدّ احتمالية أن تكون المصادفة وحدها هي ما جعلنا نرى الصور السبع ذاتها على وفق التسلسل نفسه، استناداً إلى ما سبق، ضئيلة جداً. فقد كان الحدث استثنائياً إلى حدّ بعيد، ما جعلنا ندرك أنّه لم يكن ناتجاً من أيّ مصادفة.

باتت الحقيقة المُمثّلة في وقوع أحداث استثنائية، تتواتر بصورة استثنائية جداً على حدّ سواء، ولا يمكن تحديد أيّ سبب لها في إطار القوانين الطبيعية المعروفة، وباتت تعرف بما يُسمّى مبدأ التزامن. جهلت وصديقي سبب رؤيتنا الحلم نفسه بهذه الصورة الاستثنائية، ولكنّ واحداً من جوانب الحادثة تمثّل في أنّنا رأيناها في مدّة زمنية متقاربة. وفي واقع الأمر، يُمثّل التوقيت العنصر المهم، بل الحاسم في هذه الحادثة الاستثنائية. ذكرنا في السابق، حين كنّا نناقش مسألة التعرّض للحوادث ومقاومتها، أنّ من المألوف أن يخرج الناس سليمين من عربات تتحطّم بصورة كلية، وأنّه يُعدّ سخيفاً افتراض المرء أنّ العربة تحطّم نفسها بصورة غريزية بما يمكنها من الحفاظ على السائق، أو أنّ السائق يُكيّف جسده بصورة غريزية أيضاً، ليتلاءم مع ما يصيب العربة من أضرار، وينجو من الحادث. لا يوجد من القوانين الطبيعية المعروفة ما يُؤيّد هذين الاحتمالين، ولكنّ ذلك لا ينفي أنّ تحطّم العربة بصورة تحفظ السائق، وأنّ تلاؤم جسد السائق مع ما

يصيب العربة من ضرر؛ لا ينفي أنهما يتزامنان بصورة استثنائية - أي يحدثان في الوقت نفسه - بحيث ينجو السائق فهلاً في نهاية المطاف.

لا يُوضَّح مبدأ التزامن لماذا يحدث ذلك أو كيف يحدث، بل ينصُّ ببساطة على أن هذا التزامن الاستثنائي للأحداث يتم بصورة متكررة، ويستبعد أن يكون للمصادفة دور فيها. لا يُوضَّح ذلك المبدأ المعجزات، بل يُسهِم فقط في إيضاح أنها تتعلق بمسألة التوقيت، وأنها تُعدُّ مألوفة بما يثير الدهشة.

إنَّ حادثة رؤية الحلم نفسه في الوقت نفسه، استناداً إلى مدى استثنائيتها، تُعادل أي ظاهرة روحية أو (خارقة)، على الرغم من غموض مغزى تلك الحادثة. يتسم مغزى غالبية الظواهر الروحية الخارقة بالقدر ذاته من الغموض. وتتمثَّل سمة أخرى للظواهر الروحية، وبمعزل عن مدى استثنائيتها، في أن عدداً مؤثراً منها يتسم بالإيجابية بحيث يُقدِّم الفائدة، بطريقة أو بأخرى، لمن يختبرون تلك الظواهر.

روى لي عالم كبير محترم، يتبنَّى الرؤية المُشكَّكة إلى حدٍّ بعيد - بينما كنا نجري تحليلاً - الحادثة الآتية: «شعرت بأن يومي كان جميلاً جداً، في أعقاب جلستنا الأخيرة، فقررت التوجُّه إلى المنزل عبر الطريق الذي يمرُّ بالبحيرة. يحوي ذلك الطريق كما تعلم، الكثير من المنعطفات. وحين كنت أقرب من المنعطف العاشر خطر على ذهني فجأة، فكرة أن سيارة آتية يمكنها أن تتجاوز المنعطف بسرعة كبيرة، وتصطدم بي، فضغطت على مكابح سيارتي بسرعة لتتوقَّف على الفور. وما هي إلا لحظات حتى أتت سيارة مسرعة فعلاً، وتجاوزت المنعطف بقوة، وتجنَّب سائقها بصعوبة الاصطدام بي، مع أنني كنت متوقِّفاً في مسربي من الطريق. كنا سنصطدم ببعضنا حتماً عند المنعطف، لو لم أبادر إلى إيقاف السيارة. لا أملك أي فكرة عما دفعني إلى اتخاذ القرار بالتوقُّف. كان من الممكن أن

أَتَوَقَّفُ قبل بلوغ أيٍّ من المنعطفات الكثيرة الأخرى، ولكنني لم أفعل. سلكت ذلك الطريق كثيراً من قبل، وكنت أعلم دائماً أنه خطر. ولكن، لم يسبق لي أن توقفت على الإطلاق بتلك الطريقة، في أثناء ارتياده. يدفعني ذلك إلى التشكيك في عدم وجود ما يُسمَّى (الإدراك الحسي الفائق)، وما يماثله من الأمور. لا يوجد لدي أي تفسير آخر».

قد تُعدّ الحوادث الاستثنائية - لدرجة تجعل منها أمثلة على التزامن أو الظواهر الخارقة - ضارّة في قسم منها بقدر ما تُعدّ مفيدة في قسمها الآخر. نسمع بما هو مأساوي من الحوادث الغريبة، فضلاً عما يُتَّوَجَّح بنهايات سعيدة منها. لذا، يجب بحث تلك المسألة بوضوح، على الرغم من الأسئلة التي قد تثار حول مدى فاعلية ذلك علمياً.

يمكنني أن أُعبّر في هذه المرحلة، عن انطباعي الراسخ، ولكن (غير العلمي)، المُتمثِّل في أنّ ما يفيد بوضوح من تلك الحوادث الاستثنائية يزيد كثيراً في وتيرة حدوثه عمّا يبدو ضارّاً منها. أضف إلى ذلك، أنّ النتائج الإيجابية والمفيدة لتلك الحوادث لا تقتصر على إنقاذ الحياة فحسب، بل تُسهم غالباً - ببساطة - في تحسين الحياة، وتطوير النموّ. ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك تجربة (حلم الخنفساء) لكارل يونغ، التي وردت في مقالته (عن التزامن)، واقتُبست هنا برمتها<sup>(1)</sup>:

«يتمحور مثالي حول مريضة شابة، تبين - على الرغم من الجهود التي بُذلت على مختلف الصعد - أنّ التأثير في حالتها يتعدّد سيكولوجياً. كانت الصعوبة تكمن في حقيقة أنّها تعلم الكثير عن كلِّ شيء. وقد وفّر لها تعليمها الممتاز سلاحاً يتلاءم مع تلك الحقيقة بصورة مثالية، يتمثّل في عقلانيتها (الديكارتيّة) اللامعة، وفكرتها العلمية المنزّهة عن الواقع. وجب عليّ، بعد محاولات عدّة عقيمة (لتلطيف) عقلانيتها بفهم أكثر إنسانية إلى حدٍّ ما،

1) The Portable Jung, Joseph Campbell, ed. (New York: Viking Press, 1971), pp. 511-12

أن ألوذ بالأمل بحدوث شيء غير متوقَّع وغير عقلائي، يمكن أن يُبدد الهالة الفكرية التي أحاطت نفسها بها. كنت جالساً مقابلاً لها في يوم ما، وأنا أستند بظهري إلى النافذة، في حين أستمع إلى أسلوبها البليغ في الكلام؛ فإذا هي تخبرني عن حلم مؤثّر رأته قبل ليلتين، أعطاها أحدهم فيه قطعة ذهبية ثمينة على هيئة خنفساء.

سمعت صوت نقر خفيف خلفي على النافذة، في أثناء سردها الحلم. استدرت لأجد أنّ حشرة طائرة كبيرة نسبياً كانت تضرب نفسها بزجاج النافذة من الخارج، في محاولة واضحة لدخول الغرفة. بدا ذلك غريباً جداً في نظري. فتحت النافذة على الفور، وأمسكت بالحشرة، في حين كانت تطير إلى داخل الغرفة. وجدت أنّها خنفساء - في الحقيقة - تماثل في لونها الذهبي المخضّر - إلى حدّ بعيد - ما رأته مريضتي في حلمها. مددت يدي التي أحمل بها الخنفساء إليها، قائلاً: «ها هي خنفساؤك الذهبية». نجحت التجربة في إحداث (الاختراق المطلوب لعقلانيتيها)، وكسرت جليد مقاومتها الفكرية. وبات بالإمكان الآن مواصلة العلاج مع ما هو مُرَضٌّ من النتائج.

يتمحور ما نتحدّث عنه هنا، فيما يتعلّق بالحوادث الاستثنائية ذات النتائج المفيدة، حول ظاهرة (السرنديبية). يُعرّفها قاموس (ويبستر) بأنّها (موهبة إيجاد ما هو نفيس، أو يسبّب السرور، عن طريق المصادفة). يتضمّن هذا التعريف عدداً من الجوانب المثيرة للاهتمام. يتمثّل أحدها في تسمية (السرنديبية) الموهبة، بما يشير إلى امتلاك بعض الأشخاص لها دون غيرهم من الناس، وأنّهم محظوظون أيضاً على النقيض من غيرهم. ويتمثّل الطرح الرئيس لهذا القسم في أنّ النعمة - التي تتمثّل بصورة جزئية فيما هو نفيس، أو يسبّب السرور الذي يوجد مصادفة - تتوافر للجميع، ولكنّ بعضهم يستفيدون منها دون آخرين. استفاد يونغ بوضوح عبر إدخاله الخنفساء إلى الغرفة، وإمساكه بها،

وإعطائها لمريضته. سنبحث لاحقاً، تحت عنوان (مقاومة النعمة)، في بعض أسباب فشل الناس في الاستفادة من النعمة، والطرائق التي يتجلى بها ذلك. ولكن، دعوني أشير الآن إلى أنّ واحداً من أسباب فشلنا في الاستفادة الكاملة من النعمة، يكمن في أننا لا ندرك وجودها بصورة تامة، ما يعني أننا لا نجد ما هو نفيش عن طريق المصادفة؛ لأننا نفضل في تقدير قيمة الموهبة حين تُمنح لنا. وبكلمات أخرى، تقع الأحداث (السرديبية) لكلّ منا، ولكننا نفضل غالباً في إدراك طبيعتها السرديبية، حيث نعدّ تلك الأحداث اعتيادية جداً لنفضل، ومن ثمّ، في الاستفادة منها بصورة كاملة.

عمدت قبل خمسة أشهر، حيث كان يتوافر لي ساعتان من الفراغ بين المواعيد في إحدى البلدات، إلى سؤال زميل لي يقطن هناك، عمّا إذا كان بإمكانني أن أقضي تلك المدة في مكتبة بيته؛ بهدف تنقيح القسم الأول من هذا الكتاب. وحين وصلت إلى هناك التقيت زوجته؛ المرأة الباردة المتحفظة، التي لم تكن تهتم لأمرّي كثيراً، وتعاملني أحياناً بتكبرٍ وعدائية فعلاً. تبادلنا الحديث بفتور مدة خمس دقائق تقريباً، وقد أخبرتني في غضون تلك المحادثة السطحية، أنّها سمعت بأنني أؤلف كتاباً، وأخذت تسألني عن موضوعه. أخبرتها أنّه يتناول موضوع النموّ الروحي، ولم أتوسّع في إجابتي أكثر. بعد ذلك، جلست في المكتبة وبدأت أعمل. وما إن مرّت نصف ساعة تقريباً حتّى واجهتني معضلة؛ إذ بدا جزء ممّا كتبته عن موضوع المسؤولية غير مُرضٍ أبداً بالنسبة إليّ. لذا، وجب عليّ أن أتوسّع في ذلك الموضوع بصورة أكبر؛ بهدف توضيح الأفكار التي يتضمّنها، وقد شعرت بأنّ القيام بذلك سيؤثّر في سلاسة الكتاب. لم أكن مستعداً لحذف ذلك القسم كله، استناداً إلى أنّ وجود تلك الأفكار كان ضرورياً في نظري. حاولت مغالبة تلك المعضلة ساعة من الزمن، لكنني فشلت تماماً، وشعرت بالمزيد من الإحباط، والعجز عن إيجاد حلّ لها.

دخلت زوجة زميلي المكتبة بهدوء في تلك اللحظة، وقد بدا عليها الخجل والتردد. وخلافاً لما اعتدته منها في السابق؛ فقد لمست الاحترام، والدفء، والمودة في نظرتها بصورة ما. خاطبتي قائلةً: «أمل أنني لا أتطفّل عليك يا (سكوتي). أخبرني إن كنت أفعل». أجبته بالنفي، وبأنني أواجه معضلة تمنعني من تحقيق أيّ تقدّم في تلك اللحظة. كانت تحمل كتاباً صغيراً في يدها. خاطبتي قائلةً: «لقد وجدت هذا الكتاب مصادفة. أعتقد أنّه قد يثير اهتمامك بصورة ما. ربّما لا يحدث ذلك على الأرجح. ولكن، خطر لي أنّه قد يكون مفيداً لك. لا أعلم سبب ذلك».

كان ممكناً في الأحوال الاعتيادية، مع شعوري بالضيق من المعضلة التي أواجهها، أن أخبرها أنني منهمك في قراءة الكثير من الكتب في حينه - وهو ما كان صحيحاً -، وأن من الصعب قراءته على المدى المنظور، ولكنّ تواضعها غير المألوف استحضر ردّاً مختلفاً مني، فخاطبتها، قائلاً: «إنني أقدرّ تلك البادرة اللطيفة منها، وإنني سأحاول أن أطلع عليه في أقرب وقت ممكن». أخذت الكتاب إلى البيت، جاهلاً التوقيت المحتمل لتصفّحه. ولكنّ شيئاً ما دفعني، في تلك الأمسية تحديداً، إلى أن أضع جانباً الكتب الأخرى جميعها، التي كنت أستعين بها، لكي أقرأ كتابها. كان كتاباً صغيراً بعنوان (كيف يتغيّر الناس) لـ (آلن ويليز). وقد تمحور قسم كبير منه حول موضوع المسؤولية، وكان أحد فصوله يُعبّر ببلاغة وبعُمق عمّا كنت أحاول قوله في التوسعة المحتملة لكتابي. لذا، عمدت في صباح اليوم اللاحق إلى تلخيص ذلك القسم من كتابي في فقرة صغيرة موجزة، وأحلت القارئ - في الهامش - إلى كتاب (ويليز) للاطلاع على شرح مثالي مفصّل للموضوع. شعرت بالارتياح للنتيجة؛ لأنّ معضلتي قد حلّت بذلك.

لم يكن ذلك بالحدث الهائل، أو اللافت للانتباه. كان من الممكن - إلى حدّ بعيد - أن أتجاهله، وأن تستمر حياتي بصورة طبيعية

من دون حدوثه، ولكنه مثلُّ نعمةٍ أُكْرِمْتُ بها وتأثرت. كان ذلك الحدث استثنائياً واعتيادياً في الوقت نفسه؛ استثنائياً لأنه لم يكن وارداً إلى حدِّ بعيد، واعتيادياً لأننا نتعرَّض لمثل تلك الحوادث غير الواردة المفيدة على الدوام، التي تطرق بوابة وعينا بهدوء، وبصورة لا تختلف في دراميتها عن الخنفساء التي (نقرت) زجاج النافذة بلطف. وفي الأشهر التي أعقبت تلك الحادثة، وقعت أحداث مماثلة كثيرة مع زوجة زميلي. كانت تحدث لي على الدوام حقيقةً، وقد كنت أُميّز بعضاً منها، وأستفيد من أحداث أخرى من دون أن أدرك حتى طبيعتها الإعجازية. ولكن، لا سبيل أبداً، في الواقع، لكي أعرف كم قوّت من تلك الحوادث الرائعة في حياتي.

## تعريف النعمة

وصفت إلى الآن في هذا القسم، مجموعة متعدّدة من الظواهر ذات السمات المشتركة الآتية:

أ- تُسهم في تعزيز الحياة الإنسانية والنموّ الروحي، ودعمهما، ورعايتهما، وتحسينهما.

ب- يمكن فهم مبدأ عملها إلى حدٍّ ما (كما هي الحال بالنسبة إلى المقاومة الجسدية والأحلام)، أو تُعدّ غامضة تماماً (كما في حالة الظواهر الخارقة)، وفقاً لمبادئ القوانين الطبيعية التي يُفسّرُها الفكر العلمي السائد.

ج- يُعدّ حدوثها مُتكرراً، واعتيادياً، ومألوفاً، وشاملاً بصورة أساسية للبشرية.

د- تنبع من أصول تتجاوز نطاق إرادة الوعي - على الرغم من أنّها قد تتأثر بالوعي الإنساني -، وعملية اتخاذ القرارات الواعية.

ومع أنّ تلك الظواهر منفصلة بطبيعة الحال، فقد بُتُّ أعتقد حقيقةً أنّ صفاتها المشتركة تُشير إلى أنّها تُمثّل جزءاً من ظاهرة واحدة، أو تجليات لتلك الظاهرة: قوة كبيرة تنشأ خارج نطاق الوعي الإنساني، وتُعزّز النموّ الروحي للناس. يُذكر أنّ الديني قد أقرّ بتلك القوة دائماً - مئات وآلاف السنين، قبل أن يضع العلم تسميات، مثل: (الغلوبيولينات) المنيعة، وأطوار الحلم، واللاوعي- واختار لها اسم النعمة، وأطرى عليها في ترتيلته: «يا لها من نعمة مذهلة! كم هو جميل الصوت...».

ولكن، ماذا يمكننا - نحن الذين نُشكّك كثيراً، ونتمتع بذهنية علمية - أن نفعل حيال هذه (القوة الكبيرة التي تنشأ خارج نطاق الوعي الإنساني، وتُعزّز النموّ الروحي للناس)؟

لا يمكننا أن نلمسها، ولا نملك طريقة فاعلة لقياسها. ومع ذلك، فهي موجودة وحقيقية. فهل ننظر إليها من منظار ضيق ونتجاهلها؛ لأنّها لا تدرج ضمن المفاهيم العلمية التقليدية للقوانين الطبيعية؟ ينطوي ذلك على مخاطرة كبيرة في الحقيقة. وبوجه عام، أعتقد أنّه لا يمكننا أن نأمل في مقاربة فهم شامل للكون، وموقع الإنسان فيه، وطبيعة البشرية بحدّ ذاتها من دون دمج ظاهرة النعمة في إطار عملنا المفاهيمي.

لا يمكننا مع ذلك، حتّى أن نُحدّد موقع تلك القوة. لم نقل إلاّ أنّها تنشأ خارج نطاق الوعي البشري، ومن ثمّ، فأين تقع؟ تُشير بعض الظواهر التي ناقشناها، كالأحلام، إلى أنّ النعمة تكمن في العقل اللاواعي للفرد، في حين تُشير أخرى، كالتزامن و(السرنديبية)، إلى أنّ هذه القوة موجودة خارج نطاق حدود الفرد. لا يعود الأمر ببساطة إلى علمنا بما نجده من صعوبة في تحديد منشأ النعمة. فالدينيون - مثلاً - الذين يعزّون النعمة بالطبع إلى التقدير، ويعدّونها تعبيراً عن محبته؛ وجدوا الصعوبة نفسها - على مرّ العصور - فيما يخصّ تحديد موقع التقدير. يوجد مذهبان قديمان

متعارضان في اللاهوت، يتعلّقان بتلك المسألة، يقول أحدهما: إنّ النعمة تنزل من القدير في السماء على الإنسان، في حين يرى الآخر، أنّ الإنسان يحظى بالنعمة من القدير الذي يحلّ في داخله.

تنشأ هذه الإشكالية، وإشكالية التناقض بمجملها في المقام الأول، من رغبتنا في تحديد موقع الأشياء؛ إذ تتمكّك البشر نزعة قوية للفصل بين الكيانات فيما يضعونه من مفاهيم. ونحن ننظر إلى العالم على أنّه يتألّف من تلك الكيانات: سفن، وأبنية، وملابس، وشموع، وغير ذلك. ثمّ نزع بعد ذلك إلى فهم ظاهرة ما بتصنيفها ضمن كيان معيّن دون غيره، بحيث تكون ضمن هذا الكيان أو ذاك. ولكن، لا تكون ضمنهما معاً. وتبعاً لذلك المبدأ، فإنّ السفن تكون سفناً لا أحذية، وأكون أنا أنا، وأنت أنت.

يُمثّل كيان هويتي، ويُمثّل كيانك هويتك، ونشعر بالكثير من الإرباك إن تداخلت هوية كلّ منّا. وكما أشرنا سابقاً، يعتقد المفكّرون الهندوس والبوذيون أنّ مفهومنا بخصوص الكيانات المنفصلة يُمثّل وهماً، أو ما يُسمّونه (المايا)، وقد بدأ علماء الفيزياء في وقتنا الراهن - المهتمون بنظرية النسبية، وظاهرة الموجة - الجزيئة، والكهرومغناطيسية، وغيرها - يدركون بصورة متزايدة مدى قصور مفاهيمنا المتعلقة بالكيانات. ولكن، يصعب علينا أن نتخلّى عن تلك المفاهيم، حيث تدفعنا نزعتنا للتفكير في الكيانات إلى الرغبة في تحديد مواقع الأشياء، بما في ذلك النعمة، مع علمنا أنّ نزعتنا تتداخل مع إدراكنا لطبيعة تلك الأشياء.

أحاول ألا أفكّر في الفرد بوصفه كياناً حقيقياً بالمطلق، وبقدر ما يرغمني قصوري الفكري على التفكير (أو الكتابة) بلغة الكيانات، فإنّني أنظر إلى حدود الفرد بوصفها تسمح بالنفوذ إليه بالقدر الأكبر كأنّها سياج، إن جاز التعبير لا جدار؛ سياج يمكن (للكيانات) الأخرى أن تعبره بالأشكال جميعاً. ويمكن أيضاً لعقلنا الواعي أن ينفذ، بصورة جزئية

ومتواصلة، إلى لا وعينا، فيمكن للأخير أن ينفذ إلى عقلنا الواعي - على حدِّ سواء - الذي ينفذ إلينا بدوره، من دون أن نُمثِّل كيانات في الأحوال كلها.

تصف لغة (دايم جوليان)، راهبة نورويتش - على نحو أكثر بلاغة وفصاحة من لغة القرن العشرين العلمية التي تتحدَّث عن (الأغشية المنفذة) - تصف لغتها الدينية في القرن الرابع عشر (نحو عام 1393م) الموقف والعلاقة بين النعمة وكيان الفرد بما يأتي: «كما يحيط القماش بالجسد، والجلد باللحم، واللحم بالعظم، ويحيط ذلك كله بالقلب، فإننا نحاط روحاً وجسداً، بعناية الله. أجل، ومما يزيد ذلك روعة، أنه في حين تفتنى تلك الأشياء كلها، فإنَّ عناية الله تبقى إلى الأبد»<sup>(1)</sup>.

تُشير (المعجزات) التي وصفناها، في أيِّ من الحالات، وبغضِّ النظر عن الكيفية التي نحاول أن نُفسِّرها أو نُحدِّد منشأها بها، تُشير إلى أنَّ نمونا بوصفنا بشراً يُدعَم من قوة أُخرى غير إرادتنا الواعية.

أعتقد أنَّ بإمكاننا، كي نفهم أكثر طبيعة هذه القوة، الاستفادة من التأمل في معجزة إضافية أُخرى: عملية نمو الحياة برمتها، التي نسميها التطور.

## معجزة التطور

على الرغم من عدم تركيزنا - حتى الآن - على التطور بوصفه مفهوماً، فقد كنَّا نهتم به، بطريقة أو بأخرى، في أقسام هذا الكتاب كلها. يُمثِّل النمو الروحي تطوُّر الفرد. وقد يمرَّ جسد الفرد بتغيُّرات دورة الحياة، لكنَّه لا يتطوَّر مع ذلك. وبوجه عام، لا تتشكَّل (أنماط جسدية جديدة) للإنسان،

1) Revelations of Divine Love, Grace Warrack, ed. (New York: British Book Centre, 1923), Chap. VI

ويعدّ تضاوّل قدراته الجسدية، حين يكبر في السن، كأنه أمر حتمي. وفي الأحوال كلّها، يمكن للروح البشرية أن تتطوّر بصورة مؤثّرة في حياة الإنسان، حيث يمكن أن تتشكّل (أنماط روحية جديدة)، وتستمر القدرات الروحية في الارتقاء (على الرغم من عدم حدوث ذلك عادةً) إلى أن يموت الإنسان بعد أن يكبر في السن كثيراً. وبذلك، يُوفّر لنا العمر فرصاً غير محدودة للنموّ الروحي حتّى النهاية. وفي الوقت الذي يُركّز فيه هذا الكتاب على التطوّر الروحي، فإنّ عملية التطوّر الجسدي تُماثل عملية تطوّر الروح، وتُمكننا من فهم عملية النموّ الروحي، ومعنى النعمة بصورة إضافية.

يتمثّل الجانب اللافت لعملية التطوّر الجسدي، في أنّها تُشكّل معجزة. ويجدر بالتطوّر ألا يحدث، وأن تنعدم ظاهرتّه بالمطلق، استناداً إلى المدى الذي نفهم به الكون. يتمثّل واحد من القوانين الطبيعية الرئيسة في القانون الثاني للديناميكا الحرارية، الذي ينصّ على أنّ الطاقة تنتقل بصورة طبيعية من حالة تنظيم أكبر إلى حالة تنظيم أقلّ، ومن حالة تفاضل أعلى إلى حالة تفاضل أدنى.

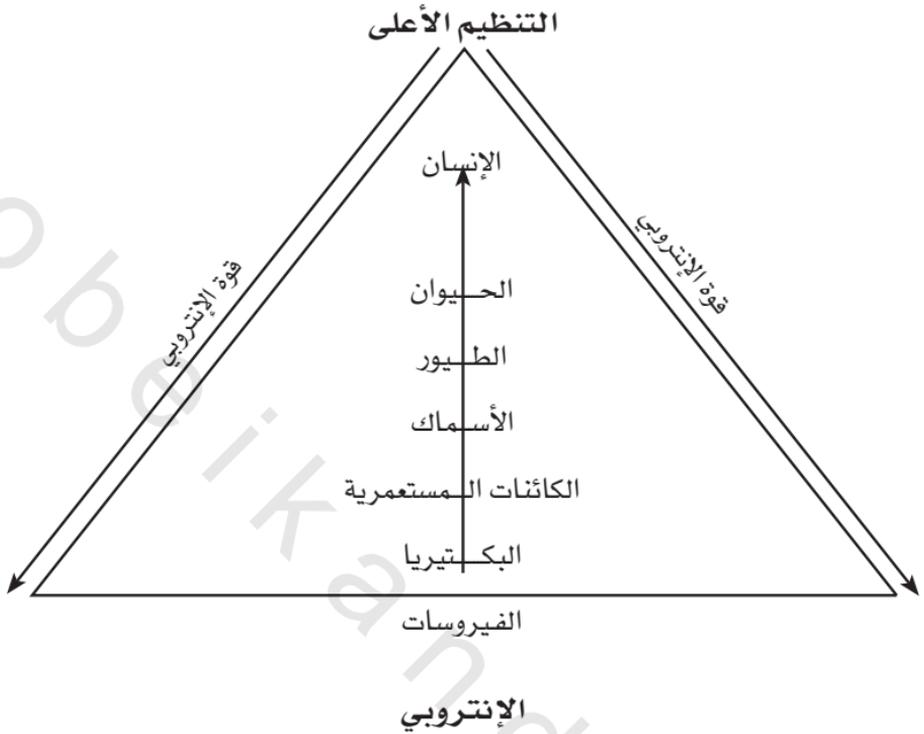
وبكلمات أخرى، فإنّ ذلك يعني أنّ الكون يمرّ بعملية خمود بصورة تدريجية. يتمحور المثال الذي يستخدم غالباً لوصف ذلك حول الأنهار التي تتدفّق نزولاً بصورة تلقائية؛ إذ يلزمنا استخدام الطاقة أو العمل - مضخات، ورافعات، وأناس يحملون دلاء، أو غير ذلك من الطرائق - لعكس تلك العملية، والعودة إلى البداية، لإعادة المياه في الاتجاه الصاعد. ويجب أن تأتي تلك الطاقة من مكان آخر، وأن تستهلك طاقة أخرى للحفاظ عليها. وفي نهاية المطاف، ستندعم فاعلية الكون بصورة كليّة، بعد بلايين السنين، على وفق القانون الثاني للديناميكا الحرارية، إلى أن يصل إلى أدنى المراحل، وإلى حالة كاملة من انعدام التنظيم والتفاضل، ويصبح خامداً بالمطلق بلا تفاعلات أو حراك. تُسمّى تلك الحالة (الإنتروبيا).

قد يُسمّى انتقال الطاقة الطبيعي، بما يستنزفها، إلى حالة الإنتروبيا بـ (قوة الإنتروبيا). والآن، يمكننا إدراك أنّ مسار التطوّر يناقض تلك القوة. فقد تمحورت عملية التطوّر حول ارتقاء الكائنات الحية من حالات أدنى إلى حالات أعلى من التعقيد، والتفاضل، والتنظيم. فعلى سبيل المثال، يُعدّ الفيروس كائناً حياً بسيطاً جداً، وأرقى من الجزيء بصورة ضئيلة. وتُعدّ البكتيريا أكثر تعقيداً وتفاضلاً، وهي تملك جدار خلية وأنواعاً مختلفة من الجزيئات، وتجري عملية الأيض، في حين يملك (الباراميسيوم) نواة، وأهداباً، وجهازاً هضمياً بدائياً. أمّا الإسفنج، فلا يملك خلايا فحسب، بل أنماطاً مختلفة منها تعتمد على بعضها بعضاً بصورة أولية. وتملك أيضاً الحشرات والأسماك أجهزة عصبية، وتتبع طرائق معقّدة في الحركة، حتّى إنّها تُؤسّس أنواعاً من المنظومات الاجتماعية.

يستمر مقياس التطوّر في الارتقاء ليزداد في تعقيده، وتفاضله، وتنظيمه، ويصل إلى الإنسان، الذي يملك قشرة مخّية كبيرة، ويتمتع بأنماط سلوك معقّدة بصورة استثنائية، بما يتيح لنا أن نقول إنّهُ يتبوأ القمة. أقول إنّ عملية التطوّر تُشكّل معجزة؛ لأنّها تُناقض القوانين الطبيعية بقدر ما ترتقي في تفاضلها وتنظيمها. ويفترض بمنّ يقرأ هذا الكتاب، وأنا - مؤلّفه - ألا نكون موجودين، استناداً إلى تلك القوانين<sup>(1)</sup>.

يمكن توضيح عملية التطوّر برسم هرم، يكون الإنسان - الكائن الحي الأكثر تطوّراً، ولكن الأقلّ عدداً - في قمته، وتكون الفيروسات الأكثر عدداً، ولكن الأقلّ تطوّراً في قاعدته:

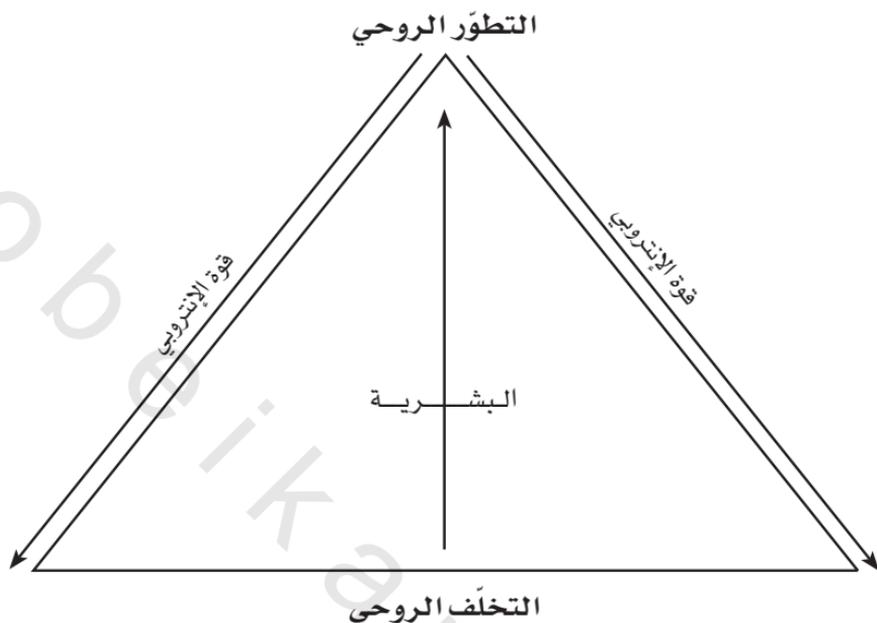
(1) لا تُعدّ الفكرة القائلة إنّ التطوّر يناقض القوانين الطبيعية جديدة أو من اكتشافي. فقد تحدّث واحد ممّن تناولتْهم دراستي في الجامعة، على وَفق ما أذكر، قائلاً: «يُنَاقِضُ التَطَوُّرُ القَانُونِ الثَّانِي لِلدِّينَامِيكَا الحَرَارِيَّةِ». ولكن، لا يمكنني - لسوء الطالع - تحديد المرجح. للاستزادة، انظر كتاب (باكمينستر فولر): And It Came to Pass—Not to Stay (New York: Macmillan, 1976).



تُعكس القمة في اتجاهها، قوة الإنتروبي. وقد وضعت سهماً داخل الهرم للإشارة إلى تلك القوة التطورية الصاعدة، التي تتحدّى بنجاح وثبات كبيرين (القوانين الطبيعية) عبر الملايين من الأجيال المتعاقبة، والتي يجب أن تُمثّل بحدّ ذاتها قانوناً طبيعياً يندرج ضمن ما لا يمكن أن نكتشف كُنْههُ بعدُ.

يمكن توضيح عملية التطور الروحي للبشرية؛ عن طريق رسم هرم

مماثل:



كنت قد أكدت مراراً على مدى صعوبة عملية النموّ الروحي والجهد الذي تتطلبه. ومردّد ذلك، أنّها تُواجه بنزعة طبيعية لمقاومتها، وللإبقاء على الأمور كما هي، وللتشبّه بالخرائط والطرائق القديمة للقيام بالأمور، ولاتباع الطرائق السهلة. سأحدّث بصورة إضافية عن هذه النزعة الطبيعية للمقاومة؛ هذه القوة العائدة إلى (الإنتروبيا) التي تُؤثّر في حياتنا الروحية. ولكنّ المعجزة تكمن - كما في حالة التطوّر الجسدي - في أنّنا نتغلّب على هذه المقاومة، وننمو ونصبح أفضل بصورة فعلية، مع كلّ ما يقاومنا. لا يحدث ذلك لنا جميعاً بالطبع، أو بسهولة، ولكنّ الكثير من الناس يتمكّنون بطريقةٍ ما، من تحسين أنفسهم ومنظورهم للحياة. وتوجد أيضاً قوة تدفعنا بصورةٍ ما، إلى اختيار الطريق الأكثر صعوبة، الذي يُمكننا من تجاوز البيئات الضحلة التي تحيط بنا منذ ولادتنا غالباً.

قد ينطبق الرسم السابق، الذي يُوَضِّح عملية التطوُّر الروحي، على كلِّ فرد منَّا؛ إذ يحتاج كلُّ فرد منَّا إلى تطوير ذاته، ويجب عليه، بهدف القيام بذلك، أن يتغلَّب وحده على مقاومته التي تحول دون تلبية تلك الحاجة.

ينطبق الرسم أيضاً على البشرية جمعاء، حيث يُسهم تطوُّرنا بوصفنا أفراداً في تطوُّر مجتمعا على حدِّ سواء. ويمكننا أيضاً تطوير البيئة التي تحيط بنا في طفولتنا عن طريق ما نبلغه من تطوُّر عند بلوغنا؛ إذ لا يستمتع مَنْ يُحَقِّقون النموَّ بثمار نموهم فحسب، بل يفيدون العالم عن طريقه أيضاً. وبذلك، فنحن نتحمَّل مسؤولية تطوُّر البشرية، حين نتطوُّر بوصفنا أفراداً، لندفعها إلى التطوُّر على حدِّ سواء.

إنَّ فكرة تقدُّم البشرية على صعيد التطوُّر الروحي، قد تبدو غير واقعية، وصعبة المنال في نظر جيل يعدُّ ذلك حلماً له. ففي الوقت الذي تعمُّ فيه الحروب ومظاهر الفساد والتلوُّث كلَّ مكان، كيف يمكن للمرء القول: إنَّ الجنس البشري يتطوُّر روحياً؟ ومع ذلك، فأنا أُؤيِّد تلك المقولة بقوة. وفي واقع الأمر، فإنَّ حلمنا بالتقدُّم ينشأ من حقيقة أننا نتوقَّع المزيد من أنفسنا بصورة أكبر ممَّا توقَّع أجدادنا من أنفسهم. فقد كانوا يعدُّون ما نراه بغيضاً ومشيناً من السلوك الإنساني، في يومنا هذا، مقبولاً في الأُمس.

يُرَكِّز هذا الكتاب بصورة رئيسة على مسؤولية الوالدين حيال تعزيز النموِّ الروحي لأطفالهم. ويمكن عدُّ هذا الموضوع أساسياً اليوم، ولكنَّ الناس لم يكونوا يهتمون به حتَّى منذ بضعة قرون خلت. وفي حين أجد أنَّ أساليب الوالدين في التربية، في الوقت الراهن، تُعدُّ سيئة بما يثير الصدمة بصورة عامة، فإنَّ لديَّ من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد أنَّ هذه الأساليب، هي أفضل بكثير من تلك التي سادت قبل بضعة أجيال.

تشير مقدّمة دراسة حديثة عن تاريخ العناية بالطفل إلى الآتي:

«منح القانون الروماني الوالد سيطرة مطلقة على أطفاله، بما يمكنه من بيعهم أو معاقبتهم حتى الموت مع منحه الحصانة. وقد انتقل مفهوم الحق المطلق هذا إلى القانون الإنجليزي، حيث استمر حتى القرن الرابع عشر من دون تغيير يُذكر. لم يكن يُنظر إلى الطفولة، في القرون الوسطى، بوصفها مرحلة متفرّدة من الحياة، كما نراها الآن. وكان من المألوف إرسال أطفال لا يتجاوز سنّهم السابعة ليعملوا خدماً أو عمالاً، وكان التعليم ثانوياً أمام ما يمكن أن يؤديه الطفل من عمل لسيده. لم يكن التمييز كما يبدو، بين الأطفال والخدم في طريقة المعاملة فحسب، بل تعدّى ذلك ليشمل فشل اللغة غالباً في استخدام مفردات منفصلة لكلّ منهم. لم يلقَ الأطفال الرعاية والاهتمام اللازمين، إلا بحلول القرن السادس عشر، بوصفهم يتسمون بالأهمية، وأنّ لديهم مهام أساسية ومحدّدة يجب عليهم أدائها كي ينموا، وأنهم يحتاجون إلى العاطفة بصورة رئيسة»<sup>(1)</sup>.

ولكن، ما تلك القوة التي تدفعنا، بوصفنا أفراداً وجماعات، لننمو ونتصدّى للمقاومة الناتجة عن نزوعنا الطبيعي إلى تجنب المشقة والعناء؟ كُنّا قد حدّدناها فعلاً؛ إنّها المحبة التي تُعرّف بـ (استعداد الفرد لتطوير ذاته بهدف تعزيز نموّه الروحي، أو النموّ الروحي لفرد آخر). يُعزى سبب نموّنا إلى أنّنا نعمل على ذلك؛ لأنّنا نحب أنفسنا. فنحن نرتقي بأنفسنا عن طريق المحبة، وهي ما يُمكننا من مساعدة الآخرين على الارتقاء بأنفسهم على حدّ سواء. تُمثّل المحبة توسيع حدود الذات، والفعل التطوّري إلى أبعد الحدود، وتُدلّل على تقدّمه. وتُظهر القوة التطوّرية - الحاضرة في مراحل الحياة كلّها - أثرها في البشرية عن طريق المحبة الإنسانية. وبذلك، تُمثّل المحبة بين بني البشر، القوة الإعجازية التي تتحدّى قانون (الإنتروبي) الطبيعي.

1) Andre P. Derdeyn, "Child Custody Contests in Historical Perspective," American Journal of Psychiatry, Vol. 133, No. 12 (Dec. 1976), p. 1369.

## الألفا والأوميغا (البداية والنهاية)

لا نزال نواجه بالسؤال الذي طُرِح في نهاية القسم عن المحبة: من أين تأتي المحبة؟ يمكننا الآن، بصورة محدّدة، أن نرتقي بذلك السؤال إلى سؤال أساسي بصورة أكبر على وجه الاحتمال: من أين تأتي قوة التطوّر بمجملها؟ قد يشمل ذلك أيضاً التساؤل عن منشأ النعمة، الذي يثير حيرتنا إلى حدّ بعيد، حيث تتدرج المحبة في نطاق الوعي، على النقيض من النعمة. فمن أين تأتي هذه (القوة الكبيرة التي تتشأ خارج نطاق الوعي الإنساني، وتُعزّز النمو الروحي للناس)؟

لا يمكننا الإجابة عن تلك الأسئلة بالطريقة العلمية ذاتها التي نجيب بها عن أسئلة تتعلّق بمنشأ الفولاذ أو اليرقات على سبيل المثال. لا يعود السبب إلى أنّها تتناول مسائل معنوية بصورة كبيرة فحسب، بل لأنّها تُعدّ معقّدة أيضاً بالنسبة إلى (علمنا) السائد حالياً. لا تُمثّل تلك الأسئلة، في الأحوال كلّها، الأسئلة المعقّدة الوحيدة التي يعجز العلم عن الإجابة عنها. فهل نعلم حقيقةً ماهية الكهرباء، أو مصدر الطاقة بصورة أساسية، أو منشأ الكون؟ ربّما يتمكّن العلم - يوماً ما - من الإجابة عن أكثر الأسئلة تعقيداً. وحتى حدوث ذلك، لا يمكننا - إن حدث - إلا أن نتكهّن، وننظّر، ونفترض، ونضع الاحتمالات.

فكي نُفسّر معجزتي النعمة والتطوّر مثلاً، فإنّنا نفترض وجود قوة ترغب في أن تنمو؛ قوة تحبنا. يبدو ذلك الافتراض بالنسبة إلى الكثير من الناس، بسيطاً جداً، وخيالياً بصورة كبيرة، وطفولياً، وساذجاً. والواقع أنّ تجاهل المعطيات من منظور ضيق لا يُمثّل حلاً لتلك المعضلة؛ إذ لا يمكننا إيجاد الإجابات ما لم نطرح الأسئلة. وعلى الرغم من بساطة تلك الفرضية في ظاهرها، فإنّ أيّاً ممّن أخذوا بالمعطيات ووجّهوا الأسئلة، لم يتمكّن من الخروج بفرضية أفضل، إن خرجوا بفرضية في الأساس. لذا، سنتشبّه،

إلى أن يتمكن أحد من ذلك، بهذه الفكرة الحاملة عن وجود قوة مُحَبَّة لنا، أو نَعْلَقُ في شَرَكِ التنظير.

ومع ذلك، لو تناولنا تلك الفكرة البسيطة بجدٍّ (وجود قوة خارقة مُحَبَّة لنا) لوجدنا أنها تتسم بقدر كبير من العمق والتعقيد.

لو افترضنا أنَّ قدرتنا على المحبة، هذه الحاجة إلى النمو والتطوُّر، قد وُهبت لنا بطريقة ما، من قِبَلِ تلك القوة، لوجب أن نسأل عن الغاية من ذلك. لماذا ترغب تلك القوة في أن ننمو؟ ما الذي ننمو لنبلغه؟ أين هي النهاية والغاية من التطوُّر؟ ما الذي تريده تلك القوة منّا؟ لا أنوي هنا أن أتعقّق في المسائل اللاهوتية، وأمل أن يعذرني (العلميون) إن طرحت كلَّ هذه الأسئلة اللاهوتية التأمّلية، ولكنّ جميعنا ممّن يفترضون وجود قوة خارقة مُحَبَّة، ويُفكِّرون في ذلك حقيقةً، قد يتوصّلون في النهاية إلى فكرة تثير الرهبة - مهما حاولوا تجنبها - تتمثّل في أنّ تلك القوة ترغب في أن تصبح مثلها.

ووفقاً لتلك الفكرة، فقد يهدف نموّنا إلى ذلك، ويسعى إلى بلوغ تلك القوة لتكون هي الغاية من تطوُّرنا. تُمثّل تلك القوة الخارقة منشأ ما يطوِّرنا، والغاية في الوقت نفسه، لتطوِّرنا. يُمثّل ذلك ما نعنيه، بالنتيجة، حين نقول إنّ تلك القوة الخارقة هي (الألفا) و(الأوميغا)، البداية والنهاية.

تعدّ تلك الفكرة أكثر من مثيرة للرهبة كما وصفتها. فمع أنّها ضاربة في القِدَم، فإننا نعمد إلى تجنبها لما تصيبنا به من رعب شديد؛ إذ تُحمّلنا من الأعباء ما يفوق أيّ فكرة راودت الإنسان في أيّ من الأوقات، وتُمثّل بلا ريب، الفكرة الأكثر تطلُّباً في تاريخ البشرية. لا يعود ذلك إلى صعوبة تخيلها - إذ تُمثّل، على النقيض من ذلك، قمة البساطة -، بل إلى استدعائها منّا، لو آمنّا بها بصورة فعلية، تقديم كلِّ ما يمكننا أن نُقدّمه،

وكلّ ما نملكه. يختلف الأمر - حين نؤمن بوجود قوة خارقة مُحبّة ترعانا من موقع جبروتها السامي، الذي لا يمكننا أن نبلغه بالمطلق - يختلف تماماً عن الإيمان بأنّ تلك القوة ترغب - على وجه الدقة - في أن ننال موقعها، ونملك قدرتها وحكمتها، ونصبح مثلها. إذا كنّا نعتقد إمكانية حدوث ذلك، فإنّ اعتقادنا يحتم علينا محاولة تحقيق ما هو ممكن. ولكنّا لا نريد ذلك الالتزام، ولا نرغب في أن نضطر إلى العمل بتلك الصورة الجادّة، أو أن نتولّى مسؤوليات تلك القوة الخارقة، أو المسؤولية المُتمثّلة في لزوم التفكير طوال الوقت.

لا يجب علينا القلق بخصوص نموّنا الروحي - حين نعتقد استحالة بلوغ مكانة تلك القوة -، أو دفع أنفسنا إلى بلوغ مستويات أعلى من الوعي والمحبة؛ إذ يمكننا في تلك الحالة أن نسترخي، ونكتفي بأننا أناس عاديون فقط. وفي حال بقيت الأمور على ما هي عليه، فستواصل تلك القوة الخارقة إدارة الكون، ودفعه نحو التطوّر، وسنقوم بدورنا البسيط المُتمثّل في تأمين حياة مريحة حين نكبر في السن، آمليين بأن تكتمل بوجود أبناء وأحفاد أصحاء، وسعداء، ومُقدّرين لنا، من دون أن نُكلّف أنفسنا عناء القيام بما هو أكثر من ذلك.

تُعدّ تلك الغايات الاعتيادية في الحياة، في مختلف الأحوال، عسيرة بما يكفي، ولا يمكن للمرء أن يستخف بها. ومع ذلك، لو اعتقدنا أنّ الإنسان قد يحظى بمكانة تلك القوة الخارقة، لما أمكننا أن نستريح أبداً، أو نُصرّح بأنّ عملنا في الحياة قد انتهى، وسيجب علينا دائماً حُضّ أنفسنا إلى امتلاك ما هو أكثر من الحكمة والفاعلية. لكنّا سنوقع أنفسنا - عبر ذلك الاعتقاد، حتّى بلوغ أجلنا - في شَرَك العمل المتواصل، والمجهد، والمضجر لتطوير الذات والنموّ الروحي، وستصبح مسؤولية تلك القوة مسؤوليتنا.

ومن ثمّ، لا عجب، من أنّ غالبية الناس لا تعتقد إمكانية بلوغ مكانة تلك القوة.

ختاماً، فإنّ الفكرة التي مفادها أنّ القوة الخارقة تلك تعمل بجدّ لتطويرنا بهدف أن نصبح مثلها؛ تضعنا في مواجهة مباشرة مع حقيقة تقاعسنا وكسلنا.

### الإنتروبي والخطيئة الأصلية

يُرَكِّز هذا الكتاب بصورة حتمية، استناداً إلى أنّه يتناول النموّ الروحي، على الوجه الآخر من العملة نفسها؛ أي معوقات النموّ الروحي. يتمثّل المعوق الأبرز منها بصورة رئيسية، في تقاعسنا وكسلنا. فلو تمكّنا من التغلّب على كسلنا، لأمكننا التغلّب على المعوقات الأخرى جميعاً، والعكس صحيح.

من ثمّ، يُرَكِّز هذا الكتاب، على الكسل أيضاً. وقد تحدّثنا، عند اختبارنا الانضباط، عن الكسل المُتمثّل في محاولة تجنّب المعاناة الضرورية، أو اتباع الطرائق السهلة. وبحثنا أيضاً، عند اختبار المحبة، في حقيقة أنّ انعدام المحبة يتمثّل في غياب الاستعداد لتوسيع حدود الذات. وبذلك، فإنّ الكسل هو نقيض المحبة. وكما ذكرنا مراراً، فإنّ النموّ الروحي يستلزم بذل الكثير من الجهد. وقد بتنا الآن في موقع يُمكننا من اختبار طبيعة الكسل في السياق الصحيح، وإدراك أنّه (الكسل) يُمثّل قوة (الإنتروبي) كما تتجلّى في حياة كلِّ منّا.

وجدت، طوال الكثير من السنوات، أنّ مفهوم الخطيئة الأصلية يخلو من المغزى، ناهيك عن أنّني كنت أرفضه. فلم أكن أرى في الجنس، أو في شهواتي الأخرى إثماً في أيّ حالٍ من الأحوال.

كنت أدلّل نفسي غالباً بالإفراط في تناول الوجبات اللذيذة، ولم أكن أشعر حقاً - في حين كنت أعاني عسر الهضم من جرّاء ذلك أحياناً - بأيّ تأنيب للضمير. لم أكن أرى الخطيئة في العالم، إلا في الغش، والتحامل، والتعذيب، والوحشية، ولكنني عجزت عن رؤية أيّ نزعة متأصلة للخطيئة في الإنسان حين يولد، ولم أر المنطقية في الاعتقاد أنّ الأطفال مصابون بلعنة الخطيئة؛ لأنّ أجدادهم أكلوا من ثمار شجرة المعرفة بالخير والشر.

بِتّ أعني بصورة أكبر وبشكل تدريجي الطبيعة الكليّة لوجود للكسل. كما وجدت - حين كنت أكافح لمساعدة مرضاي على النمو - أنّ عدوي الرئيس كان يتمثّل دائماً في كسلهم. وبِتّ أعني وجود نزعة مماثلة في داخلي إلى مقاومة توسيع حدود ذاتي، والتماس أبعاد جديدة للفكر، والمسؤولية، والنضج. تمثّل واحد من الأشياء التي أشرت فيها بوضوح مع البشرية جمعاء، في الكسل. لذا، لم تبدُ قصة الأفعى والتفاحة ذات مغزى في نظري، إلا في تلك المرحلة وبصورة مفاجئة.

تتمحور المسألة الرئيسة حول ما هو مفقود هنا. تقول القصة باختصار إنّهُ وُجد نوع من التواصل بين القدير والبشر عند حدوثها. ويدفعني ذلك إلى التساؤل عن السبب الذي منع آدم وحواء من سؤال القدير، قبل أن يعملوا بما وسوست به الأفعى لهما. لماذا فشلا في ذلك؟ لماذا لم يقوموا بأيّ خطوة بين وسوسة الأفعى لهما، وعملهما بتلك الوسوسة؟ تمثّل تلك الخطوة المفقودة جوهر الخطيئة في نظري، وتتمحور حول عدم سؤالهما القدير.

يرمز ذلك السؤال إلى القدير - الذي يُمثّل الخير - عن وسوسة الأفعى - التي تُمثّل الشر -، يرمز إلى الحوار بين الخير والشر الذي يمكن، ويجب، أن يجريه البشر في عقولهم. إنّ سبب الأفعال الشريرة التي تُسبب

الخطيئة، مردّه فشلنا في إجراء ذلك الحوار الداخلي بين الخير والشر بصورة عامة، وإجراؤه بشمولية وصدق على وجه الخصوص.

يعجز الناس بصورة متواصلة - عند مناقشة مدى الحكمة في عمل ما - عن الاستماع إلى صوتهم الداخلي المحق، والرجوع إلى معرفتهم الصحيحة التي تتأصل في عقول البشر كافة. نفشل في ذلك حقيقةً لأننا كسالي؛ إذ يتطلّب إجراء تلك الحوارات الداخلية بذل الجهد، ناهيك عن الوقت والطاقة. ولو تعاملنا معها بجدّ - أنصتنا بجدّ إلى ذلك الصوت المحق في داخلنا - لوجدنا أننا نُدفع عادةً إلى اختيار المسار الأكثر صعوبة، الذي يتطلّب جهوداً كثيرة عوضاً عن القليل منها. يعني إجراء تلك الحوارات تعريض أنفسنا للمعاناة، والدخول في دوامة من الكفاح. لذا، يُحجّم كلُّ منا، فيما هو أكثر أو أقلّ من الأوقات، عن القيام بذلك العمل، ويتجنّب القيام بتلك الخطوة المؤلمة، لنماثل بذلك أجدادنا كافة، ونتصف بالكسل على حدٍّ سواء.

إنّ ما يُسمّى بالخطيئة الأصلية يتمثّل حقاً في كسلنا. إنّها حقيقة صرفة، وتكمن في كلِّ منّا: الرضع، والأطفال، والمراهقين، والبالغين الناضجين، والمستنّين، والحكماء، والحمقى، أو أيّ فئة كانت. قد يكون بعضنا أقلّ كسلاً من الآخرين، ولكننا نتصف بالكسل جميعاً إلى حدٍّ ما. وبغضّ النظر عمّا قد نتسم به من نشاط، وطموح، وحكمة، فسنجد - لو نظرنا إلى داخلنا بصدق - أنّ الكسل يكمن في أعماقنا بصورة ما. إنّها قوة (الإنتروبي) بداخلنا، التي تعيقنا وتمنعنا من أن نتطوّر روحياً.

قد يُخاطب بعض القرّاء أنفسهم، قائلين: «ولكننا لسنا كسالي؛ إذ نعمل ستين ساعة أسبوعياً، ونضغط على أنفسنا في الأماسي وعطلات نهاية الأسبوع - حتّى لو كنّا تَعبين - كي نخرج برفقة أزواجنا، أو نستصحب

الأطفال إلى حديقة الحيوانات، أو نساعد في أعمال المنزل، أو نوّدي أيّاً من الواجبات. يتراءى لنا أحياناً أنّ كلّ ما نقوم به هو العمل، العمل، العمل».

قد أتعاطف مع أولئك القراء، ولكنني أُصرّ على أنّهم سيجدون الكسل في داخلهم لو بحثوا عنه بصدق، استناداً إلى أنّه يأخذ أشكالاً مختلفة عن تلك التي تتعلّق بعدد الساعات التي يقضيها المرء في الوظيفة، أو التي يُكرّسها للآخرين. ويتمثّل شكل رئيس منها حقيقةً في الخوف. يمكن الرجوع إلى قصة آدم وحواء، مُجدّداً، لتوضيح ذلك. ويمكن للمرء أن يقول، على سبيل المثال، إنّ الخوف هو ما منعها من سؤال القدير لا الكسل؛ بسبب عظمة القدير، والخشية من غضبه. ينطبق ذلك بدقة على الواقع في جزء كبير منه، على الرغم من أنّ مظاهر الخوف جميعاً لا تتمحور حول الكسل.

يتمثّل جزء كبير من خوفنا في الخوف من تغيير الوضع الراهن، والخوف من إمكانية فقدان ما نملكه لو حاولنا المضي قدماً من الموقع الذي نشغله. تحدّثت، في القسم المتعلّق بالانضباط، عن الحقيقة المُتمثّلة في أنّ الناس يجدون المعطيات الجديدة مخيفة بصورة واضحة؛ لأنّه سيجب عليهم - لو تبنّوا تلك المعطيات - أن يعملوا كثيراً لمراجعة خرائطهم للواقع، فضلاً عن تجنّب القيام بذلك العمل بصورة غريزية. وفي أغلب الأحيان، ينزع الناس إلى التصدّي لتلك المعطيات الجديدة عوضاً عن استيعابها، وذلك بدافع الخوف. علماً أنّ أساس ذلك الخوف يكمن في الكسل، حيث يخشون القيام بما يُفرض عليهم من عمل.

تحدّثت بصورة مماثلة، في القسم المتعلّق بالمحبة، عن الأخطار الكامنة في توسيع حدود ذاتنا لنلتمس ما هو جديد من الأبعاد، والالتزامات، والمسؤوليات، والعلاقات، وأشكال الحياة. تتمحور المسألة هنا مُجدّداً، حول المخاطرة بفقدان ما نملكه في وضعنا الراهن، والخوف من العمل المطلوب

للانتقال إلى وضع جديد. يُعَدُّ من المرجح كثيراً أن يكون آدم وحواء قد خشيا ممّا قد يحدث لهما لو سألّا القدير، فعمداً - عوضاً عن ذلك - إلى اتباع المسار السهل، وسلوك الطريق المختصر غير المشروع؛ بالاستجابة لما وسوست به الأفعى لهما، ليتعرّضا لعقاب القدير بالنتيجة. قد يتطلّب ذلك السؤال، الذي يرمز إلى الحوار بين الخير والشر كما أسلفنا، الكثير من العمل، ولكنّ مغزى القصة يكمن في أنّه يجب علينا القيام بذلك الحوار دائماً.

ومع أنّ المرضى يقصدون المعالجين النفسيين بهدف إحداث تغيير بصورةٍ ما، فإنّ هؤلاء المعالجين يعلمون أنّ مرضاهم يخافون التغيير حقّاً، والقيام بالعمل الذي يتطلّبه. يعود سبب ذلك الخوف أو الكسل إلى قيام الغالبية الساحقة من المرضى - التي تُشكّل نسبة تسعين في المئة على وجه الاحتمال - بترك العلاج قبل اكتماله بمدةٍ طويلة.

يحدث ذلك غالباً في غضون الجلسات الأولى، أو الأشهر الأولى من العلاج. ويتبدّى بأوضح صورة، في الكثير من الأوقات، في حالة المتزوجين الذين يدركون، في بضع الجلسات الأولى من العلاج، أنّ زيجاتهم مضطربة ومدمّرة جداً، وأنّ طريق العلاج يمرّ عبر الطلاق، أو إحدى العمليات العسيرة والمؤلمة إلى أبعد الحدود، لإصلاح الزواج بصورةٍ شاملة. يُدرك أولئك المرضى ذلك بصورة لا شعورية، وقبل أن يخضعوا للعلاج غالباً. لذا، لا تُسهّم الجلسات الأولى من العلاج إلا في تأكيد ذلك الإدراك الذي توصلوا إليه بصورة مسبقة، الذي يثير رهبتهم؛ إذ يغمرهم الخوف من مواجهة الصعوبات التي تبدو هائلة في العيش وحدهم، أو العمل أشهراً وسنوات مع أزواجهم بهدف تحسين زواجهم بصورة جذرية، ليعمدوا إلى ترك العلاج بعد جلستين أو ثلاث في بعض الأحيان، أو عشر أو عشرين في أحيان أخرى. وقد يُبرّروا ذلك قائلين: «نعتقد أننا أخطأنا

حين ظننا أننا نملك المال الكافي للعلاج»، أو أن يعترفوا صراحة: «نخشى ممّا يمكن أن يتسبّب فيه العلاج لزواجنا. نعلم أنّ في ذلك تقاعساً وهروباً من المسؤولية. ولكن، يمكن في يوم ما أن نملك الإرادة والجرأة للخضوع للعلاج مرّة أخرى». ينزع أولئك في النهاية إلى الإبقاء على وضعهم البائس الراهن، عوضاً عن بذل الكثير من الجهود، التي يدركون أنّها ستكون مطلوبة، لتغيير ذلك الوضع.

وبوجه عام، لا يُدرك الناس أنّهم يتصفون بالكسل في المراحل الأولى من نموهم الروحي، على الرغم من إمكانية تعبيرهم عن ذلك بشكل صوري عبر قول: «نتصف بشيء من الكسل بالطبع، كأني أناس آخريين». يُعزى سبب ذلك إلى أنّ الجزء الكسول من الذات، كما الشّرير منها، يفتقر إلى النزاهة، ويتفنّن في إخفاء حقيقته بصورة خادعة، ويغطّي على كسله بالمبررات جميعاً، بما يجعل الجزء الأكثر نموّاً من الذات عاجزاً عن التصدّي له. وقد يردّ المرء حين يُدعى إلى اكتساب المزيد من المعرفة في مجال ما، قائلاً: «لقد درس ذلك المجال الكثير من الناس، لكنهم لم يتوصّلوا إلى أيّ إجابات عن التساؤلات التي تدور حوله»، أو: «لا يستهوي ذلك المجال سوى التافهين من الناس. أعرف واحداً منهم. إنّه سكير، وقد أقدم على الانتحار»، أو: «لقد بتّ كبيراً جدّاً على القيام بذلك»، أو: «تحاول أن تتلاعب بي كي أصبح نسخة عنك، ولا يُفترض بالمعالجين النفسيين أن يفعلوا ذلك».

تُشكّل تلك الإجابات كلّها، والكثير غيرها، محاولات للتغطية على كسل المرضى أو الطلبة، وهم يقومون بها لخداع أنفسهم أكثر ممّا يخدعون المعالجين أو المدرّسين، حيث يُمثّل إدراكهم حقيقة اتصافهم بالكسل، وإقرارهم به، بداية عملية التغلّب عليه، التي يتقاعسون عن القيام بها.

يُعزى سبب ما سبق، إلى أنّ مَنْ يبلغون مراحل متقدّمة نسبياً من النموّ الروحي، يتمتعون بالقدر الأكبر من الوعي بما يتصفون به من كسل. ويُعدّ أولئك هم الأقلّ كسلاً إضافة إلى ذلك. من جانب آخر، فقد اكتسبت مزيداً من الوعي بمدركات جديدة - في خضمّ كفاحي الشخصي للنضج - تبدو كأنّها تحاول أن تتهرّب منّي من تلقاء ذاتها، واستشعرت وجود أبعاد جديدة بناءً للفكر. وكما يبدو، فإنّني أنزع بصورة تلقائية إلى تجنّب بلوغها. أشكّ في أنّ تلك المدركات والأفكار النفيسة تفوتني في معظم الأوقات، وأنّني أضيعها حقاً من دون أن أدرك ذلك. ولكنني أجد نفسي مرغماً في الواقع، حين أصبح واعياً بحقيقة أنّني أتجنّبها، على أن أَعُدّ خطاي في سبيل التماسها. لا ينتهي النضال ضد قوة (الإنتروبي)، بالنتيجة، على الإطلاق.

يملك جميعنا نفساً مريضةً وأخرى سليمةً. وبغضّ النظر عمّا قد يصيبنا من العصاب أو الذهان، وما إذا كنّا مسكونين بالمخاوف ومُتصلّبين إلى أبعد الحدود، فإنّ جزءاً منّا - مهما صغُر - يرغب في أن ننمو، ويجب التغيير والتطوّر، وينجذب إلى ما هو جديد ومجهول، ويملك الاستعداد للقيام بالعمل المطلوب للتطوّر الروحي، وتحمل الأخطار التي ينطوي عليها. وبغضّ النظر - في المقابل - عمّا قد نبدو عليه من صحة وتطوّر روحي، فإنّ جزءاً منّا أيضاً - مهما صغُر كذلك - لا يرغب في أن نجهد أنفسنا، ويتشبّه بما هو قديم ومألوف، ويخاف من أيّ تغيير أو جهد قد نبذله، ويرغب في الراحة وتجنّب الألم بأيّ ثمن، حتّى لو تجسّدت العاقبة في انعدام فاعليتنا، وجمودنا، وتراجعنا.

تبدو النفس السليمة في بعضنا، ضعيفة بما يثير الشفقة، بحيث يهيمن عليها كلياً ما تتصف به نفسنا المريضة المسيطرة من كسل وخوف. وقد ينمو بعضنا الآخر بصورة سريعة، بحيث ترتقي نفسنا السليمة المهيمنة

بقوة في كفاحها للتطوّر المتواصل. وبوجه عام، يجب على نفسنا السليمة دائماً، أن تكون مُتنبّهة لكسل نفسنا المريضة، الذي يكمن في كلِّ منّا. نتمائل نحن البشر جميعاً في ذلك؛ إذ يملك كلُّ منّا نفساً سليمةً وأخرى مريضةً، بما يمكن تشبيهه مجازاً بالرغبة في الحياة والرغبة في الموت. يُمثّل كلُّ منّا الجنس البشري برمّته بما يملكه من نزعة، في داخله، للتطوّر إلى أبعد الحدود، والأمل في ارتقاء البشرية، وما تتضمّنه ذاته من خطيئة أصيلة تتمثّل في الكسل، وقوة (الإنتروبي) الدائمة الوجود التي تدفعنا نحو أرحام أمهاتنا، وطفولتنا، والبيئات الضحلة التي نتطوّر منها.

### مشكلة الشر

نظراً إلى أنّي أشرت إلى أنّ الخطيئة الأصيلة تتمثّل في الكسل، وأنّ الأخير قد يكون شيطاناً حقيقياً في نفسنا المريضة، فمن المناسب أن أوضح الأمر بصورة كاملة عبر إبداء بعض الملاحظات حيال طبيعة الشر فينا. تُعدّ مشكلة الشر أكبر المشكلات اللاهوتية جميعاً. ومع ذلك، فقد تعامل علم النفس - كما في الكثير من المسائل (الدينية) الأخرى - مع بعض الاستثناءات البسيطة، وكأنّ الشر غير موجود أبداً. والواقع أنّ علم النفس يملك الكثير ممّا قد يُسهّم به في هذا الموضوع. أمل أن أتمكّن من إثراء جزء من ذلك الإسهام بصورة مطولة في عمل آخر، وسأكتفي الآن، بما أنّ الموضوع يُعدّ ثانوياً بالنسبة إلى محور الكتاب، بذكر أربعة استنتاجات مختصرة توصلت إليها بخصوص طبيعة الشر.

استنتجت أولاً، أنّ الشر حقيقي، وأنّه ليس خيالاً يلجأ إليه العقل الديني البدائي، في محاولة فاشلة، لتفسير ما هو مجهول.

يوجد فعلاً أناس - ومؤسسات تتألف منهم - يستجيبون بكرهية لما هو خير، ويعملون على تدميره بما أمكنهم. إنهم لا يقومون بذلك بصورة

واعية حاقدة، بل بما يفتقر إلى البصيرة والوعي بما يتصفون به من شر، ويتجنبون بصورة لا شعورية الالتفات إلى ذلك الوعي. وكما وُصِف الشيطان في الأدب الديني، فهم يكرهون النور، ويفعلون أي شيء بصورة غريزية لتجنبه، بما في ذلك محاولة إطفائه في الكون بصورة عامة، وفي أطفالهم والكائنات التي تخضع لسلطتهم جميعها.

يكره الأشرار النور لأنه يُظهر حقيقتهم، والخير لأنه يكشف سوءهم، والمحبة لأنها تفضح كسلهم. سيطفئون النور، ويحاربون الخير والمحبة كي يتجنبوا الألم الناتج عن الإدراك الذاتي لمشكلتهم.

يتمثل استنتاجي الثاني في أنّ الشر يُجسّد الكسل بأقصى حدوده. وكنت قد ذكرت أنّ المحبة تُناقض الكسل؛ إذ يُعبّر الكسل الاعتيادي عن الفشل في المحبة بصورة لا شعورية. وقد لا يقوم بعض الأشخاص، ممّن يتصفون بما هو اعتيادي من الكسل، بأي شيء لتوسيع حدود ذاتهم ما لم يُرغموا على ذلك، وقد يُعبّرون في وجودهم عن اللامحبة، ولكنهم لا يكونون أشراراً مع ذلك. وفي واقع الأمر، يتجنب الأشرار - بصورة فاعلة متممّة لا عفوية - توسيع حدود ذاتهم، ويفعلون كلّ ما بوسعهم لحماية كسلهم، والحفاظ على نفسهم المريضة، ويدمرون الآخرين في سبيل ذلك - بصورة فعلية - عوضاً عن الإسهام في بنائهم، وقد يقتلون - لو اقتضت الضرورة - كي يتجنبوا الألم الناتج عن عملية النموّ الروحي. ولأنّ نفسهم المريضة قد تُهدّد من قِبَل مَنْ يمتنعون بالسلامة الروحية من حولهم، فإنهم سيسعون بالطرائق كلّها لسحق أرواحهم وإضعافها. وبذلك، أُعرّف الشر بأنه ممارسة ما يملكه المرء من سلطة - فرض إرادته على الآخرين، بصورة صريحة أو ضمنية - كي يتجنب توسيع حدود ذاته؛ بهدف تعزيز نموّ الروحي. يُشار إلى أنّ الكسل الاعتيادي يُعبّر عن انعدام المحبة، في حين يعادياها الشر بالمطلق.

يتمثّل استنتاجي الثالث في حتمية وجود الشر، في هذه المرحلة - في الأقلّ - من التطوّر البشري. لو نظرنا إلى الحقيقة المُتمثّلة في أنّ قوة (الإنتروبي) تعمل على الدوام، وأنّ الناس يملكون إرادة حرّة، فسيكون لزاماً أن يتصف بعض الأشخاص بالكسل بصورة كبيرة، وأن يكون آخرون مُتحرّرين منه إلى حدّ بعيد. ولأنّ قوة (الإنتروبي) تُناقض الصعود التطوّري للمحبة، فسيكون من الطبيعي حتماً أن يتساويا بصورة نسبية لدى معظم الناس، في حين يُظهر بعض الأفراد - في أقصى اليمين - أسمى أنواع المحبة، ويُعبّر بعضهم الآخر - في أقصى الشمال - عن أسوأ مظاهر (الإنتروبي) أو الشر. وسيكون لزاماً أيضاً، استناداً إلى ما سبق، أن يتصارع مَنْ في اليمين، ومَنْ في الشمال دائماً؛ لأنّ من الطبيعي أن يكره الخيرُ الشرَّ بقدر ما يكره الشرُّ الخيرَ.

استنتجت أخيراً، أنّه في حين تُعدّ (الإنتروبي) قوة هائلة، فإنّها تفتقر إلى الفاعلية، بصورة غريبة، بوصفها قوة اجتماعية في مظهرها الأكثر تطرّفاً للشر في الإنسان. سبق لي فعلاً، أن رأيت الشر بعيني وهو يُهاجم بشراسة، ويُدمّر بشدّة أرواح وعقول العشرات من الأطفال. ولكنّ هذا الشر يؤتي نقيضه في الإطار الشامل للتطوّر البشري، حيث يلعب دوراً رئيساً، مقابل كلّ ما يُدمّره من أنفس - وما أكثرها - في إنقاذ أنفس أخرى. ويُسهّم أيضاً من حيث لا يدري، في تحذير الآخرين من أخطاره. ولأنّ معظمنا قد وُهبوا حاسّة غريزية تثير رهبتهم من خطورة الشر، حين يدركون أنّه يمثل أمامهم، فإنّ شخصياتنا تتسلّح بالوعي بوجوده. يُوجّهنا ذلك الوعي إلى تطهير أنفسنا. فعلى سبيل المثال، كان الشر هو ما رفع (المسيح) على الصليب، ليُمكننا بذلك من رؤيته عن بُعد. تتمثّل واحدة من طرائق نموّنا في اشتراكنا بصورة شخصية في المعركة ضد الشر في العالم.

## تطوّر الوعي

وردت كلمتا (واع) و(الوعي)، بصورة مُتكرّرة، في أقسام هذا الكتاب كلها. يقاوم الأشرار الوعي لكي لا يروا حقيقتهم. وتتمثّل ميزة المتطوّرين روحياً في وعيهم بكسلهم؛ إذ لا يملك الناس، في كثير من الأحيان، الوعي بمعتقدهم أو نظرتهم إلى العالم. لذا، يجب عليهم - في أثناء تطوّر فكرهم دينياً - أن يكونوا على وعي بافتراضاتهم ونزعتهم إلى التحيز. وبوجه عام، يتطوّر وعينا بصورة أكبر، عبر تحييد الذات والمحبة، ليحيط بمحبوينا والعالم بأسره. ويتمثّل جزء رئيس من الانضباط في تطوّر وعينا بمسؤوليتنا، وقدرتنا على الاختيار. وفي هذا السياق، نُسمّي قدرتنا على الإدراك، التي نخصّ بها جزءاً من ذهننا، (الوعي). وقد بتنا الآن في مرحلة تُمكننا من تعريف النموّ الروحي بنموّ الوعي أو تطوّره.

اشتقت الإنجليزية كلمة (واع) من كلمة لاتينية مركّبة تعني ترجمتها الحرفية (أن يعلم عن طريق). ولكن، كيف يمكننا أن نعرف ما يعلم المرء عن طريق (أي عن طريق ماذا)؟ تحدّثنا في السابق عن حقيقة أنّ الجزء اللاواعي من ذهننا هو مَنْ يملك المعرفة الاستثنائية، ويعلم أكثر ممّا نعلم في وعينا. وحين نصبح واعين بحقيقة جديدة ما، فإنّ مردّد ذلك هو إدراكنا أنّها تُشكّل حقيقة - بما يعني بصورة ما أنّنا نعيد معرفة - ما نعلم به منذ زمن بعيد. ومن ثمّ، ألا يمكن أن نستنتج، أنّ الوعي يعني أن يعلم المرء عن طريق اللاوعي؟ يُمثّل تطوّر الوعي تطوّر إدراك عقلنا الواعي للمعرفة مع عقلنا اللاواعي، الذي يملك تلك المعرفة بصورة مسبقة. ويُشكّل ذلك عملية تحدث بالتزامن بين العقل الواعي واللاوعي، ولا يجدر به أن يكون غريباً في نظر المعالجين النفسيين، الذين يُعرّفون العلاج غالباً بأنّه عملية (جعل اللاوعي واعياً)، أو توسيع عالم الوعي بالعلاقة مع عالم اللاوعي.

ولكننا لم نُفسّر - حتى اللحظة - الكيفية التي يملك بها اللاوعي كل تلك المعرفة التي لم نكتسبها بعد بصورة واعية. تُعدّ تلك المسألة معقّدة جداً - مُجدّداً - بما يعجزنا عن إيجاد أجوبة علمية لتفسيرها، ويدفعنا إلى وضع الفرضيات حولها لا أكثر. لا أعلم بوجود أيّ فرضية مُرضية بقدر افتراض أنّ القدير يهبنا المعرفة بصورة تلقائية؛ ما يعني أنّه لو أردنا أن نبحث عن النعمة أو الحكمة، لوجدنا أنّها تكمن بداخلنا، وأنّ الارتباط بين القدير والإنسان يُمثّل بصورة جزئية في الأقل، ارتباطاً بين لا وعينا ووعينا، وأنّ هذا الارتباط دائم منذ الأزل، وسيبقى كذلك.

إذا استغرب القارئ ممّا سبق، فيجدر به استحضار أنّ الدين المسيحي قد أشار إلى الفكرة نفسها. وأجد أنّ من المفيد هنا فهم هذا الارتباط بين المعرفة التي ننالها من القدير وبيننا، بين لا وعينا ووعينا، عن طريق النظر إلى اللاوعي بوصفه جذراً خفياً، كبيراً، غنياً جداً، يغذي نبتة الوعي الصغيرة التي تنشأ منه. لقد استعرت هذا التشبيه ممّا كتبه (يونغ):

«بدأت لي الحياة دائماً كنبته تعيش عن طريق جذرها. صحيح أنّ الحياة خفية؛ إذ تكمن في ذلك الجذر. أمّا الجزء الذي يبرز من الأرض، فلا يبقى أكثر من سيف، ليذبل فيما بعد كأنّه خيال عابر. لا يمكننا، حين ننظر إلى النشوء والفناء المتواصلين للحياة والحضارة، أن نتجنّب التفكير في الزوال المطلق.

لم أفقد إيماني قط، مع ذلك، بوجود ما يعيش ويبقى تحت السطح الأبدي. لا نرى إلا الزهرة التي تذبل وتفنئ، في حين يبقى الجذر حياً»<sup>(1)</sup>.

لم يتحدّث (يونغ) على الإطلاق - بصورة صريحة وفعلية - عن الارتباط بين القدير والإنسان، من زاوية اللاوعي والوعي، على الرغم

1) C. G. Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, Aniela Jaffe, ed. (New York: Vintage Books, 1965), p. 4

من أن كتاباته كانت تُلَمَّح بوضوح إلى ذلك. وقد تمثَّل ما فعله حقيقةً في تصنيف اللاوعي إلى (اللاوعي الشخصي) الأكثر سطحية وفردية، و(اللاوعي الجمعي) الأعمق الذي يشترك فيه البشر.

يرمز اللاوعي الجمعي، في نظري، إلى المعرفة التي يهبها القدير، ويرمز الوعي إلى الإنسان بوصفه فرداً، في حين يرمز اللاوعي الشخصي إلى العلاقة بينهما. ولأنَّ اللاوعي الشخصي يرمز إلى تلك العلاقة، فإنَّ ذلك يحتم أن يكون مكاناً مضطرباً بصورةٍ ما، ومسرحاً لنوع من التفاعل بين المعرفة السامية التي يهبها القدير، ومعرفة الفرد المتواضعة. وقد سبق لي أن وصفت اللاوعي بالعالم اللطيف والمحِب، وهذا ما أراه عليه، ولكنَّ الأحلام تتضمَّن أيضاً - إلى جانب رسائل الحكمة والمحبة - الكثير من الإشارات إلى التفاعل والتنازع، ويمكن - في حين تُجدِّد الأحلام الذات بصورة لطيفة - أن تكون كوايبس مخيفة ومروَّعة. يعود سبب ذلك إلى تحديد منشأ الأمراض النفسية في اللاوعي من قبل معظم المفكرين، وكأنَّ تلك الأمراض تتمركز فيه، وأعراضها تماثل شياطين خَفِيَّة تتكشف لتُعذِّب المرء.

تناقض وجهة نظري ذلك الأمر، كما أشرت من قبل؛ إذ أعتقد أنَّ الوعي هو منشأ الأمراض النفسية، التي تُمثِّل أمراضاً للوعي. يُعزى سبب مرضنا إلى المقاومة الذاتية، من قِبَل وعينا لحكمة لا وعينا. ويُعزى السبب بدقة أيضاً إلى مرض وعينا في تصادمه باللاوعي، الذي يسعى إلى علاجه. وبكلمات أخرى، فإنَّ المرء يُصاب بالمرض النفسي حين تتعارض إرادته الواعية بصورة جوهرية، مع إرادته اللاواعية.

ذكرت فيما مضى، أنَّ الغاية المطلقة للنموِّ الروحي تكمن في أن يبلغ المرء أعلى درجات التطوُّر. ولأنَّ المعرفة التي يهبها القدير ترمز إلى اللاوعي على الدوام، فقد نُوسِّع تعريف غاية النموِّ الروحي، لنقول: إنَّها تكمن في

بلوغ أعلى درجات التطوّر عبر النفس الواعية، بصورة كلية وشاملة. فهل يعني ذلك أنّ تلك الغاية تتمثّل في أن يندمج الوعي في اللاوعي، ليصبح جزءاً منه بالمطلق؟ يُعدُّ ذلك مستبعداً في الأحوال كلّها.

وصلنا الآن إلى بيت القصيد، الذي يتمثّل في أن نبلغ أعلى درجات التطوّر مع الحفاظ على وعينا. فإذا تطوّر (برعم) الوعي الذي ينمو من جذر اللاوعي المتطوّر أساساً، فإنّ التطوّر سيأخذ شكلاً جديداً بذلك، بما يمكن أن يُمثّل المغزى من وجودنا الفردي؛ إذ نولد بصفتنا أفراداً واعين، على وجه الاحتمال، كي نتخذ أشكالاً جديدة للتطوّر.

وفي واقع الأمر، يُمثّل الوعي الجزء التنفيذي من وجودنا الكلّي، ويتحمّل مسؤولية اتخاذ القرارات وترجمتها إلى أفعال. وفي حال قُدّر لنا أن نعيش بصورة كلية في اللاوعي، فسنكون بذلك حقاً كالرضع المولودين حديثاً. عندئذٍ، سنحظى بالمعرفة التي يهبها القدير بصورة كلية، ولكننا سنعجز عن القيام بأيّ فعل لنشر تلك المعرفة في العالم.

توجد نزعة للارتداد كما أشرت سابقاً، في الفكر الباطني للعقيدة اللاهوتية الهندوسية والبوذية، تتمثّل في مقارنة وضع الرضيع بلا حدود للذات بحالة (النيرفانا)، وتشبه غاية الدخول في تلك الحالة غاية العودة إلى الرحم. إلا أنّ ما أنادي به هنا يتناقض مع تلك الغاية إلى حدٍّ بعيد؛ إذ لا تتمثّل الغاية، في نظري، في الارتداد لنصبح رضيعاً غير واعين، وبلا حدود للذات، إنّما في أن نكون ذاتاً ناضجةً واعيةً تتمكّن من التطوّر إلى أبعد الحدود. وفي حال تمكّننا - بوصفنا بالغين - من اتخاذ قرارات مستقلة تُؤثّر في العالم، فإنّ إرادتنا الحرّة الواعية ستُمكّننا من بلوغ أعلى درجات التطوّر، وسنتخذ في الوقت نفسه - عن طريق نفسنا الواعية، أشكالاً جديدةً وفاعلةً لذلك التطوّر. وسنصبح، بصورة مماثلة، أداة تنفيذية له - إن جاز التعبير -، وجزءاً منه. وبقدر ما نتمكّن - في تلك الحالة، عن

طريق قراراتنا الواعية - من التأثير في العالم بما نبلغه من تطوّر، فسنعبّر بذاتنا عن نعمة القدير، ونُمثّل شكلاً من أشكالها، لنعمل بين بني البشر، على وفق إرادة القدير، على نشر المحبة حيث تنعدم، وحفز بني جنسنا إلى بلوغ مستوانا من الوعي، والدفع بعجلة التطوّر البشري قُدماً.

## طبيعة القوة

بلغنا الآن مرحلةً تُمكننا من فهم طبيعة القوة التي يُساء فهمها كثيراً في الحقيقة. يعود واحد من أسباب ذلك إلى وجود نوعين من القوة: قوة سياسية، وأخرى روحية. وقد بذلت الميثولوجيا الدينية جهوداً كبيرة للتمييز بين الاثنين. أخبر العرّافُ والدَ (بوذا)، على سبيل المثال، قبل ولادته، أنّه سيصبح أقوى ملك على الأرض، أو رجلاً فقيراً، سيغدو أعظم زعيم روحي عرفه العالم في أيّ من الأوقات. ميّزت الأسطورة بذلك بين الملك والزعامة الروحية. وبالمثل، فقد عرض الشيطان على (المسيح) أيضاً (ممالك العالم كلّها ومجدها)، لكنّه رفض ذلك، وفضّل الموت، ضعيفاً كما يبدو على الصليب.

تعني القوة السياسية قدرة المرء على إرغام الآخرين على الخضوع لإرادته صراحةً أو ضمناً. وتتمثّل تلك القدرة في منصب الملك أو الرئيس، أو في المال، لافي الشخص الذي يتولّى المنصب، أو مَنْ يملك المال. ومن ثمّ، فلا ترتبط القوة السياسية بالخير أو الحكمة، حيث يزخر التاريخ بقصص مَنْ تولّوا الملك من الأشرار والحمقى إلى أبعد الحدود. وفي المقابل، تكمن القوة الروحية - بصورة كليّة - في الفرد، ولا ترتبط بالقدرة على إرغام الآخرين. وقد يتصف مَنْ يملكون قوة روحية كبيرة بالثراء، ويتولّون أحياناً مناصب سياسية وقيادية. ولكنّهم قد يتصفون بالأرجحية نفسها، بالعوز، والافتقار إلى السلطة السياسية. إذن، فيمّ تتمثّل القوة الروحية، استناداً

إلى أنّها لا تتعلّق بالقدرة على إرغام الآخرين؟ إنّها تتمثّل في القدرة على اتخاذ القرارات بالقدر الأكبر من الوعي، بل هي الوعي نفسه.

يعمل معظم الناس غالباً على اتخاذ القرارات بقليل من الوعي بما يفعلونه، وينفّذونها بالقليل من الفهم لدوافعهم، وبجهل مطلق لعواقب خياراتهم. فهل نعرف ما نفعه حقيقةً حين نقبل أو نرفض التعامل مع زبون جديد محتمل، أو حين نضرب طفلاً، أو نرقي موظفاً، أو نتغرّل بواحدة من معارفنا؟ يعلم كلّ مَنْ عمل طويلاً في المجال السياسي أنّ ما يتّخذ بأفضل النيات من الإجراءات يؤتي نقيضه غالباً، ويكون ضاراً في نهاية المطاف، وأنّ مَنْ يملك دوافع ونيات سيئة قد يتبنّى قضية غير عادلة - كما تبدو عليه الحال -، فتثمر جهوده في النهاية عمّا هو إيجابي من النتائج. ينطبق الأمر نفسه على تربية الأطفال. فهل من الأفضل عمل ما هو صحيح لما هو غير مناسب من الأسباب على نحو أكثر من عمل ما هو غير مناسب لما هو صحيح من الأسباب؟ لا شكّ في أنّنا نكون في قمة الجهل - في كثير من الأحيان - حين نكون متيقنين بالمطلق، ونكون في قمة الإرباك حين نكون متوتّرين بالمطلق.

إذن، ما الذي يمكن فعله ونحن نعوم في بحر من الجهالة؟ قد يتصف بعضهم بالعدمية، ويجيبون قائلين: «لا شيء»، ويشيرون بأن نواصل العوم لا أكثر، كأنّه لا يوجد مسار يمكننا سلوكه في ذلك اليمّ الكبير لنصل إلى أيّ يقين حقيقي، أو وجهة ذات مغزى. ولكنّ آخرين، ممّن يملكون ما يكفي من الوعي ليعلموا أنّهم ضائعون، يضعون نصب أعينهم العمل على إخراج أنفسهم من الجهل، عن طريق الارتقاء بوعيهم بصورة أكبر. لا شكّ في أنّ هؤلاء محقّقون في ذلك، حيث يمكنهم القيام به. ولكن، لا يمكنهم أن يحظوا بذلك الوعي الأكبر بلحظة تنوير عابرة؛ إذ تتم تلك العملية ببطء، وبخطوات تدريجية، بما يلزمهم العمل بأناة في كلّ خطوة، لدراسة كلّ

شيء وملاحظته، بما في ذلك أنفسهم. لذا، يجب على هؤلاء (الطلبة) أن يتسموا بالتواضع؛ لأننا نسلك الطريق إلى النمو الروحي عن طريق التعلم طوال العمر.

لو تم ارتياد ذلك الطريق طويلاً بما يكفي من الجد، لأخذنا نضع قطع أحجية المعرفة في مكانها الصحيح، ولأصبحت الأمور ذات مغزى بصورة تدريجية. ولا يغيب عن الذهن أننا قد نمرّ في ذلك الطريق بمجازات معتمة، ونتعرّض لخيبات أمل، ونتخلّى عن بعض ما اكتسبناه من مفاهيم. لكننا سنتوصّل تدريجياً إلى فهم أعمق لما يتمحور وجودنا حوله، وسنبلغ المرحلة التي تُمكننا من معرفة ما نقوم به حقاً، وامتلاك القوة.

تعدّ تجربة القوة الروحية ممتعة بصورة رئيسة؛ إذ يستمتع المرء حقيقةً بما يملكه من قدرة روحية، ولا يوجد ما يرضيه بقدر أن يصبح خبيراً في الحياة، وأن يملك المعرفة بما يقوم به. لذا، يُتظر إلى الذين ينمون - أكثر من غيرهم - روحياً بوصفهم خبراء في العيش. توجد متعة أخرى أكبر، تتمثل في أننا نصبح قادرين على استيعاب المعرفة التي يهبها القدير لنا، والاستفادة منها بالقدر الأكبر حين نعرف ما نقوم به حقيقةً. والواقع أننا نبلغ أعلى درجات الوعي حين نحيط تماماً بطبيعة ما نمر به من مواقف، وبدوافعنا للتصرّف على وفاقها، وبناتج أفعالنا وعواقبها، لنتجح نفسنا الواعية في توظيف المعرفة التي يهبها لنا القدير - إلى أبعد الحدود - نتيجة لذلك.

وبوجه عام، يتسم الأفراد الذين يبلغون تلك المرحلة من النمو الروحي والوعي الكبير - في الأحوال كلّها، وبصورة دائمة - بالتواضع الجميل. ويتمثل أحد مظاهر وعيهم في إدراك أنّ حكمتهم غير العادية تُستمدّ من لا وعيهم. يحيط أولئك تماماً بالعلاقة التي تربطهم بالجذر، ويُدركون أنّهم يستمدون معرفتهم منه عبر تلك العلاقة. وتدرج جهودهم

للتعلم في إطار تلك العلاقة تحديداً، ويُدرِكون أنّ الجذر (لا وعيهم) لا يتعلق بهم وحدهم، بل بالبشرية جمعاء، والحياة برمّتها، والمعرفة التي يهبها التقدير بكلّيتها.

يجيب المُتمكّن بحقّ دائماً حين يُسأل عن مصدر معرفته وقدرته، قائلاً: «إنّها ليست قدرتي. ما أملكه من تلك القدرة لا يُمثّل سوى جزء بسيط من قدرة أكبر بكثير. لا أشكّل أكثر من مظهر بسيط للتعبير عنها. هي ليست قدرتي على الإطلاق». وصفت ذلك التواضع بالجميل؛ ذلك أنّ المُتمكّن بحقّ يُهمّش شعوره بامتلاك المعرفة الذاتية لما يملكه من وعي بالمعرفة التي يهبها التقدير، ولا يرغب إلاّ في أن يكون أداة لنشر تلك المعرفة. يُسبّب تهميش الذات بتلك الطريقة - على الدوام - نوعاً من النشوة، بما يُماثل تجربة المحبة. أضف إلى ذلك أنّ المُتمكّنين بحقّ لا يشعرون غالباً بالوحدة؛ لأنّهم يُدرِكون مدى الارتباط بين ذاتهم والمعرفة التي يهبها التقدير لهم.

مع أن تجربة القوة الروحية تثير الرهبة، فإنّها تُعدّ ممتعة. وكلّما اتسم المرء بما هو أشمل من الوعي، صعب عليه أن يقوم فعلاً. ذكرت هذه الحقيقة في نهاية القسم الأول، حين أوردت مثال الجنرالين اللذين وجب على كلّ منهما أن يتخذ قراراً بالزج بفرقته في المعركة. وأوضحت أنّ الجنرال الذي لا تُمثّل الفرقة في نظره أكثر من وحدة للعسكريين، وأداة لتنفيذ الإستراتيجية؛ يمكنه أن يخلد إلى النوم بسهولة بعد أن يتخذ قراره، خلافاً للجنرال الآخر الذي سيكون اتخاذ القرار بالنسبة إليه عسيراً جداً، استناداً إلى إدراكه مدى قدسية روح كلّ فرد من الفرقة. أعتقد أنّنا جميعاً جنرالات بهذا المعنى؛ إذ قد يكون لقراراتنا آثار هائلة غالباً، بما في ذلك مكافأة طفلٍ ما أو معاقبته.

يسهل على المرء أن يتصرّف كيفما اتفق، استناداً إلى ما يحيط به من المعطيات القليلة. ولكن، كلما كان وعينا أكبر وجب علينا استيعاب المزيد من المعطيات، ودمجها في عمليتنا لصنع القرار. وكلّما بتنا نعرف أكثر أصبحت قراراتنا معقّدة بصورة أكبر، ولكننا سنغدو قادرين، بصورة إضافية، على التنبؤ بكيفية سير الأمور. ولو تولّينا المسؤولية المُتمثّلة في محاولة التنبؤ بدقة بكيفية سير الأمور، لكان الشعور بتعقيد تلك المهمة غامراً جداً لنا، بحيث نمتنع عن القيام بأيّ فعل. قد تُمثّل تلك الحالة بحدّ ذاتها نوعاً من الفعل، ويمكن أن تُشكّل الخيار الأمثل في ظروف معينة، ولكنها تكون كارثية ومدمّرة بالتأكيد حين نمرّ بظروف أخرى.

لا تتمثّل القوة الروحية في امتلاك الوعي ببساطة، بل في القدرة على اتخاذ القرارات بما هو أكبر من الوعي. وتتمثّل أسمى أنواع القدرة، إضافة إلى ذلك، في القدرة على اتخاذ القرارات بالوعي الكامل. ومع ذلك، لا يعني امتلاك تلك القدرة دائماً، وعلى النقيض ممّا يعتقدّه الناس، أنّ عملية صنع القرار تصبح أسهل، بل تغدو أكثر صعوبة في الأوقات جميعها.

تتمحور مشكلة أخرى حول القوة؛ وهي التفرد<sup>(1)</sup>. يظهر التشابه هنا، من ناحية على الأقلّ، بين القوتين: السياسية، والروحية؛ إذ يُماثل بلوغ قمة التطوّر الروحي بلوغ ذروة القوة السياسية. لا يجد المرء، في تلك الحالة، مَنْ يفوقه مكانةً - ليوكّل إليه المسؤولية، أو يُوجّه له اللوم، أو يتلقّى منه الإرشاد -، أو حتّى مَنْ يحظى بمكانته ليشاركة العناء أو المسؤولية. ومع أنّه يمكن للأخريين إسداء النصّح إليه، فإنّ القرار يعود إليه وحده في النهاية،

(1) يمكنني التمييز بين التفرد والوحدة؛ إذ أعرف الأخيرة بأنّها الافتقار إلى مَنْ يمكن التواصل معهم بالمطلق، حيث يحاط الأقوياء عادةً بمَنْ يتوق كثيراً إلى التواصل معهم من الآخرين، فيندر أن يشعروا بالوحدة، وقد يتوقون إليها في بعض الأحيان. وفي المقابل، أعرف التفرد بأنّه الافتقار إلى مَنْ يمكن التواصل معهم ممّن يتمتعون بالقدر ذاته من الوعي.

ناهيك عن تحمُّله المسؤولية وحده. يُذكَرُ أَنَّ مَنْ يملك القوة الروحية الكبيرة يتجاوز بتفرُّده - من ناحية أخرى - مَنْ يحظى بالقوة السياسية.

وبوجه عام، يجد مَنْ يملكون القوة السياسية - لأنَّ مستوى وعيهم لا يرتقي، إلاَّ فيما ندر، ليعادل ما يتولَّونه من مناصب رفيعة - يجدون على الدوام مَنْ يُمَاتِلُهُمْ، على الصعيد الروحي، ليتواصلوا معه. وفي الوقت الذي يحظى فيه الملوك والرؤساء دائماً بالصحبة والأصدقاء، يفتقر مَنْ بلغ أعلى درجات الوعي ومراتب القوة الروحية إلى مَنْ يشاركه في فهمه العميق من معارفه. يتمحور واحد من أكثر الموضوعات تأثيراً في الإنجيل حول شعور (المسيح) المتواصل بالإحباط لعجزه عن إيجاد مَنْ يمكن أن يفهمه حقيقةً؛ إذ لم يتمكَّن المسيح، على الرغم من محاولاته الجادة كُلِّها، من الارتقاء بعقول أتباعه المقربين حتَّى لتبلغ مستواه الفكري والروحي. فعجز أكثرهم حكمةً عن مجاراته، واضطر (المسيح)، على الرغم من كلِّ ما يتسم به من محبة، إلى أن يقودهم وحده بالمطلق. (يشترك) في ذلك النوع من التفرُّد كلُّ مَنْ يقطعون أبعد المسافات في رحلة النموِّ الروحي.

يُمثِّلُ ذلك التفرُّد، إضافة إلى ما سبق، عبئاً كبيراً جداً، بحيث لا يمكننا حمله إذا لم يكن إيماننا بالتقدير يزداد بصورة حتمية، في الوقت الذي نسمو فيه على بني جنسنا من البشر. ختاماً، تُوفِّرُ المعرفة التي يهبها التقدير، وتتمِّي وعينا، ما يكفي من العون لدعمنا.

### النعمة والمرض النفسي: أسطورة أوربستيس

خرجنا - فيما مضى - بعدد من العبارات المتباينة حيال طبيعة الصحة والأمراض النفسية، مثل: «العصاب هو دوماً بديل عن المعاناة المشروعة»، «تُعبِّرُ الصحة النفسية عن الالتزام بالواقع مهما كلف الثمن»، «يُصاب المرء بالمرض النفسي حين تتعارض إرادته الواعية، بصورة

جوهرية، مع إرادته اللاواعية». والآن، دعونا نختبر مسألة المرض النفسي بصورة أكثر عمقاً، ونُوحد تلك العناصر في كل مترابط.

نعيش حياتنا في عالم الواقع. وكي نعيشها بصورة طبيعية، يجب التوصل إلى فهم حقيقة العالم بأفضل ما يمكننا. ولكن ذلك لا يتم بسهولة؛ إذ تُعدّ حقيقة العالم، وعلاقتنا به، من نواح عدة، مؤلمة جداً لنا، ولا يمكننا فهمها إلا بالكثير من الجهود والمعاناة. لذا، نحاول جميعاً، بدرجة أكبر أو أقل، تجنب تلك الجهود والمعاناة، وتجاهل الجوانب المؤلمة من الحقيقة عبر السعي لإخراجها من نطاق وعينا. يعني ذلك أننا نحاول الدفاع عن وعينا وإدراكنا في مواجهة الحقيقة. ونعتمد إلى ذلك بطرائق مختلفة يدعوها الأطباء النفسيون آليات الدفاع. نستخدم جميعاً تلك الدفاعات بهدف تقييد وعينا. فلو دافعنا بقوة عن وعينا، من جرّاء كسلنا وخوفنا من المعاناة، لتّصف فهمنا للعالم بالقليل من الواقعية، أو افتقر إليها بالطلق. ونظراً إلى أنّ أفعالنا تستند إلى فهمنا، فسيتصف سلوكنا في تلك الحالة، باللاواقعية. وحين يصبح ذلك واضحاً تماماً لمن يحيطون بنا، فإننا نصبح (منفصلين عن الواقع)، ونصبح في نظرهم مرضى نفسيين، مع أننا نكون مقتنعين بسلامتنا من الناحية النفسية<sup>(1)</sup>. ولكن، وقبل تدهور الأمور بهذه الصورة من التطرّف بمدّة طويلة، وقبل توصل الآخرين إلى قناعة أننا مصابون بمرضٍ نفسي ما، فقد أشعرنا اللاوعي بزيادة عدم قدرتنا على التكيف. يُقرّر لا وعينا بذلك بطرائق عدّة، أبرزها: الكوابيس، ونوبات القلق، والاكْتئاب، وغير ذلك من الأعراض. وعلى الرغم من أنّ عقلنا الواعي يُنكر الواقع، فإنّ لا وعينا، الكلّي المعرفة، يحيط بالحقيقة،

(1) أقرّ بأنّ هذه النظرة إلى المرض النفسي قد تُعدّ سطحية إلى حدّ ما؛ إذ إنّها لا تراعي العوامل الجسدية أو الكيميائية الحيوية، التي قد تكون مهمة جداً، أو حتّى الأهم في حالات معينة. أقرّ أيضاً بإمكانية أن يكون بعض الأفراد واقعيين بما يفوق المحيطين بهم كثيراً، بحيث يُعدّون (مجانين) في نظر (مجتمعهم المريض). ومع ذلك، تُعدّ النظرة التي ذُكرت هنا صائبةً بالعلاقة مع الغالبية الساحقة من حالات المرض النفسي.

ويحاول أن يساعدنا - بتحفيز عقلنا الواعي، عن طريق تلك الأعراض - على إدراك أنه يعاني خلافاً ما. وبكلمات أخرى، تُشكّل الأعراض المؤلمة وغير المرغوب فيها للمرض النفسي تجليات للنعمة، ونتائج «لقوة كبيرة تنشأ خارج نطاق الوعي الإنساني، مُعزّزة نموّنا الروحي».

كنت قد أشرت في السابق، حين تناولت بصورة مختصرة مسألة الاكتئاب، في نهاية القسم الأول عن الانضباط، إلى أنّ الأعراض الاكتئابية تمثل إشارة تُنبئ المرء لإصابته باضطراب ما، ولحاجته إلى أن يجري تعديلات كبيرة على نفسه. ينطبق الكثير من الأمثلة التي أوردتها لتوضيح مبادئ أخرى على هذه الحالة أيضاً، وتُشير إلى أنّ الأعراض المؤلمة للمرض النفسي تُسهّم في إعلام الناس أنّهم يسلكون المسار غير المناسب، وأنّ أرواحهم لا تنمو، وأنّها مُهدّدة جداً. ومع ذلك، دعوني أورد مثلاً آخر - باختصار - لأوضح الدور الذي تؤديه تلك الأعراض.

كانت (بيتسي) في سنّ الثانية والعشرين، لطيفة، وذكية، ومحتشمة إلى أبعد الحدود، وقد أتت لرؤيتي من جرّاء تعرّضها لنوبات قلق شديدة.

كانت الابنة الوحيدة لأبوين كاثوليكين من الطبقة العاملة، وقد حرّصا على توفير المال لإرسالها إلى الجامعة. قرّرت (بيتسي) بعد عام من الدراسة في الجامعة - على الرغم من تفوّقها الأكاديمي - أن تترك الجامعة، وتتزوّج ابن جيرانها الميكانيكي، ناهيك عن شغلها وظيفية بائعة في أحد المتاجر. سارت الأمور على ما يرام مدّة عامين، ثمّ بدأت (بيتسي) تتعرّض لنوبات القلق بصورة مفاجئة. لم يوجد ما يُشير إلى توقيت حدوثها على الإطلاق، باستثناء أنّها كانت تتعرّض لها دائماً حين تكون في مكانٍ ما خارج شقتها، دون أن يكون زوجها برفقتها. فقد تتعرّض لتلك النوبات في أثناء التسوّق، أو العمل في المتجر، أو حتّى السير على الطريق. كان الشعور بالرعب يغمرها عند حدوث ذلك، وقد كانت تضطر إلى ترك ما تقوم به

في تلك اللحظة، والهرولة إلى شقتها، أو المرآب الذي يعمل فيه زوجها. لم يكن خوفها يتلاشى إلا حين تكون في المنزل، أو برفقة زوجها. وفي نهاية المطاف، اضطرت إلى ترك وظيفتها بسبب نوبات القلق تلك.

أتت (بيتسي) لرؤيتي بعد أن عجزت المهدئات التي وصفها لها طبيبها العام عن إيقاف نوبات قلقها الشديدة، أو حتى التخفيف منها. أخذت تنتحب، قائلة: «أجهل الخطب الذي يعتريني. كل شيء رائع في حياتي. يعاملني زوجي بطيبة، ونحب بعضنا بعضاً كثيراً. كنت أستمتع جداً بعملتي. والآن، بات كل شيء مريعاً. لا أدري لماذا أصابني ذلك. أظن أنني سأصاب بالجنون. أرجوك ساعدني. ساعدني كي تعود حياتي رائعة كما كانت عليه».

اكتشفت (بيتسي) في خضمّ عملنا معاً، أنّ حياتها لم تكن (رائعة) جداً كما كانت تعتقد. فقد تبينّ ببطء، وبصورة مؤلمة أنّ لزوجها - مع طبيته - من السلبيات ما يضايقها؛ إذ كان يتعامل بفظاظة أحياناً بصورة ما، ناهيك عن أنّ اهتماماته لم تكن واسعة، وأنّ مشاهدة التلفاز تُمثلّ الشيء الوحيد الذي يفعله للتسلية. أضجرتها الرجل بالنتيجة، لتُدرك فيما بعد أنّ عملها بائعة في المتجر قد أصابها بالضجر على حدّ سواء. أخذتُ أتساءل عمّا جعلها تترك الجامعة كي تعيش تلك الحياة الخالية من الإثارة.

أجابتنني بصراحة، قائلة: «حسناً، بتّ أشعر بعدم الارتياح بصورة متزايدة هناك. كان الطلبة منغمسين جداً في مسألة الجنس والمخدرات. لم أشعر بأنّ ذلك كان مناسباً. ثمّ أخذ هؤلاء الطلبة يُشككون فيّ، ولم يقتصر الأمر على الشباب الذين أرادوا التقرب إليّ فحسب، بل شمل ذلك صديقاتي أيضاً. كانوا يظنون أنني ساذجة، وبتّ أشكك في نفسي، وفي الكنيسة، وبقيم والدي. أعتقد أنّ الخوف أصابني من ذلك». عملت (بيتسي) في أثناء العلاج، على مواجهة عملية التشكيك التي تهرّبت منها

بترك الجامعة، لتعود إليها، في نهاية المطاف، وليُظهر زوجها لحسن الطالع، استعداده للنمو معها، ويلتحق بالجامعة أيضاً. حينئذٍ، أخذت آفاقهما تتوسّع بصورة سريعة، وتخلّصت (بيتسي) بالطبع من نوبات قلقها.

يمكن النظر بالكثير من الطرائق إلى هذه الحالة النموذجية إلى حدٍّ ما. كانت نوبات قلق (بيتسي) تُعدّ - بوضوح - نوعاً من (الأغورافوبيا) التي تعني حرفياً الخوف من ساحة السوق، ولكنها تشير عادةً إلى الخوف من الأماكن المفتوحة، وقد كانت تُمثّل بالنسبة إليها خوفاً من الحرية. كانت تُصاب بها حين تكون في الخارج، وتملك الحرية في التنقّل والتواصل مع الآخرين. لقد شكّل الخوف من الحرية أساس مرضها النفسي. وقد يقول بعضهم إنّ نوبات القلق - التي تُمثّل خوفها من الحرية - هي ما كان يُعبّر عن مرضها النفسي، ولكنني وجدت أنّه من المفيد والمنورّ - بصورة أكبر - أن أنظر إلى الأمور بطريقة أخرى. لقد كانت تخاف من الحرية قبل مدّة طويلة من تعرّضها لنوبات القلق، وقد أدّى ذلك الخوف إلى تركها الجامعة، وإعاقة تطوّرها. أعتقد أنّها كانت مريضة في حينه، قبل ثلاثة أعوام من ظهور الأعراض، ولكنها لم تكن مدركة لذلك، أو للضرر الذي تُسببه لنفسها بتقييد ذاتها. كانت تلك الأعراض - نوبات القلق التي لم تكن تريدها بالطبع أو تُطالب بها، وشعرت أنّها أُصيبت بها، وكأنّها (لعنة) حلّت عليها (بصورة مفاجئة) - هي ما جعلها تحيط أخيراً بمرضها الحقيقي، وأرغمها على سلوك مسار التصحيح الذاتي والنمو. أعتقد أنّ هذه الحالة تنطبق على معظم الأمراض النفسية؛ إذ لا يُشكّل المرض والأعراض شيئاً واحداً. فقد يكمن المرض مدّة طويلة قبل ظهور الأعراض. لذا، تُشكّل الأعراض، عوضاً عن كونها المرض، بداية علاجه.

تُدلُّ حقيقة أنّ تلك الأعراض لا تكون مرغوباً فيها، على أنّها تُمثّل ظاهرة للنعمة (هبة من القدير)، ورسالة من اللاوعي، إن جاز التعبير، لبدء الفحص والتصحيح الذاتيّن.

وبوجهٍ عام، يرفض معظم الناس هذه الهبة، ولا يتنبّهون للرسالة. يفعلون ذلك بالكثير من الطرائق المختلفة، التي تُشكّل جميعاً محاولات للتهرّب من المسؤولية عن مرضهم. يحاولون تجاهل الأعراض عن طريق التشكيك فيها، والقول إنّ «الجميع يتعرّضون لتلك النكسات البسيطة من حين إلى آخر». يحاولون الالتفاف عليها بترك الوظائف، والتوقّف عن قيادة السيارات أو الانتقال إلى مدن جديدة، وتجنّب القيام بأنشطة معينة. ويحاولون أيضاً تخليص أنفسهم من تلك الأعراض عن طريق تناول المسكّنات، وبعض العقاقير التي يصفها أطباؤهم، أو تخدير أنفسهم بالكحول والمخدرات. ولو افترضنا أنّهم يتقبّلون حقاً وجود تلك الأعراض، لألقوا باللائمة - باستخدام الكثير من الطرائق غير المباشرة - على العالم من حولهم (أقرباء مهملين، أصدقاء زائفين، شركات جشعة، مجتمع مريض، قدر لا يرحم). وفي المقابل، لا يقوم إلاّ القلّة - ممّن يتحمّلون المسؤولية عن تلك الأعراض، ويُدركون أنّها تُشكّل تجلّيات لاضطراب في أنفسهم - بالتنبّه لرسالة لا وعيهم، وتقبّل النعمة، وحقيقة أنّهم يعانون خلاّماً، والألم الناتج من العمل المطلوب لعلاج أنفسهم. وفي الأحوال كلّها، فإنّ ذلك يعود عليهم (بمّن فيهم بيتسي والآخرين كافة المستعدون لتحمل ألم العلاج النفسي) بما هو مُجزٍ من المكافآت. كان (المسيح) يتحدث عنهم، في خطبته على الجبل، حين قال: «ببارك الله من تشكو أرواحهم من الضعف؛ لأنّها تسكن مملكة السماء»<sup>(1)</sup>.

إنَّ ما أقوله هنا عن العلاقة بين النعمة والمرض النفسي يتمثل، بصورة جميلة، في أسطورة (أوريستيس وآلهة العقاب) اليونانية الرائعة<sup>(1)</sup>. فقد حاول (أوريستيس) حفيد (آتريوس)، أن يُثبِت بقوة أنَّه أقوى من الآلهة، فعاقبه الأخيرون بإنزال اللعنة على أحفاده كافة. ونتيجة لهذه اللعنة على عائلة (آتريوس)؛ عمدت (كلايتمنسترا)، أم (أوريستيس) إلى قتل والده وزوجها، (آغاميمنون). ومن ثمَّ حَلَّت اللعنة على (أوريستيس) نتيجةً لتلك الجريمة؛ لأنَّ الابن يلزم قبل الجميع، على وَفْق قانون الشرف اليوناني، بقتل مَنْ قتل والده، ولأنَّ أكبر خطيئة يمكن أن يرتكبها اليوناني - في الوقت نفسه - تتمثل في قتل أمه.

عذبت تلك المعضلة (أوريستيس)، ليعمد إلى قتل أمه في نهاية المطاف. فعاقبت الآلهة (أوريستيس) على تلك الخطيئة بعد ذلك - بتسليط آلهة العقاب عليه؛ ثلاث نساء مخيفات مؤذيات لا يمكن لأحد غيره أن يراهنَّ ويسمعهنَّ، وقد قمن بتعذيبه ليلاً نهاراً عن طريق انتقاده بصورة متواصلة، وترويعه بمظهرهنَّ المخيف.

هام (أوريستيس) على وجهه في الأرض، مُلاحقاً أينما ذهب من آلهة العقاب، مُحاولاً التكفير عن خطيئته، ليطالب الآلهة بعد سنوات طويلة من الوحدة والعذاب، بتخليصه من اللعنة التي حَلَّت بعائلة (آتريوس)، وعاقبتها المُتمثلة في تسليط آلهة العقاب عليه، نتيجة لنجاحه - كما يعتقد - في التكفير عن قتل أمه. عقدت الآلهة محاكمة له، وتحدّث الإله أبولو، دفاعاً عن (أوريستيس)، قائلاً إنَّه المسؤول عن وضع (أوريستيس) في الموقف الذي اضطره إلى قتل أمه، وحرمانه من أيِّ خيار آخر، ما يجعله غير

(1) توجد الكثير من الروايات لتلك الأسطورة، مع اختلافات جوهرية فيما بينها. لذا، لا يمكن التسليم بصحة أيِّ منها. تم تلخيص الرواية الواردة هنا، بصورة رئيسة، ونقلها من عمل (إديث هاميلتون): Mythology (New York: Mentor Books, New American Library, 1958) استدللت إلى تلك الأسطورة عن طريق رولو ماى الذي استخدمها في كتابه (الحب والإرادة)، وتي. أس. أليوت في مسرحيته (لَمَّ شمل العائلة).

مسؤول بصورة فعلية، عن مقتلها. وقف (أوريستيس)، في تلك اللحظة، لِيُنَاقِضَ كلام محاميه، قائلاً: «كنت أنا، لا أبولو، مَنْ قتل أُمِّي!». ذُهِتِ الآلهة نتيجة لذلك، حيث لم يسبق قطُّ، لأيٍّ من أفراد عائلة آتريوس، أن تحمّل المسؤولية الكاملة عمّا اقترفه، وبرّاً الآلهة منها، فحكمت لمصلحته، وخلصته من اللعنة التي أصابت عائلة (آتريوس)، ناهيك عن تحويل آلهة العقاب إلى أرواح محبة مكّنت (أوريستيس)، عن طريق نصحتها وحكمتها، من أن يعيش بسعادة دائمة.

لا يتصف مغزى هذه الأسطورة بالغموض؛ إذ تُمثّل النساء المخيفات - اللاتي تحوّلن فيما بعد إلى (عطوفات)، أو (حاملات للنعمة)، وكنّ يرمزنّ إلى الهلوسة من قبل، بوصف أنّ (أوريستيس) كان الوحيد الذي يمكنه أن يراهنّ ويسمعهنّ - الأعراض التي أصيب بها، والجحيم الذي يعيشه المريض النفسي. أضف إلى ذلك، أنّ تحوّلنّ الإيجابي يُمثّل تحوّل المرض النفسي إلى السعادة التي عاشها (أوريستيس) فيما بعد. حدث ذلك التحوّل؛ لأنّ (أوريستيس) كان مستعدّاً لتحمل مسؤولية مرضه النفسي. وعلى الرغم من أنّه سعى - في نهاية المطاف - للتخلّص من النساء المخيفات، فلم يكن يرى فيهنّ عقاباً ظالماً، أو يرى في نفسه ضحية للمجتمع أو غيره.

ترمز النساء المخيفات أيضاً، استناداً إلى كونهنّ نتيجة حتمية للنعنة التي أصابت عائلة (آتريوس)، إلى الحقيقة المُتمثّلة في أنّ المرض النفسي يتعلق بالعائلة، وأنّ المرء يصاب به عن طريق والديه وأجداده، وأنّ خطايا الوالد تنعكس على الأبناء بصورة مماثلة. ولكنّ (أوريستيس) لم يُلقَ باللائمة على عائلته، أو والديه وأجداده، أو الآلهة، أو (القدر)، إنّما تقبّل حقيقة أنّ ما أصابه كان من صنيعته، وبذل الجهود لعلاج. كانت العملية طويلة، بما يُماثل معظم عمليات العلاج النفسي، ولكنّه شُفي بالنتيجة،

وحول ما أصابه بالبؤس، بعملية العلاج والجهود التي بذلها، إلى ما منحه الحكمة لاحقاً.

يشهد المعالجون النفسيون المتمرسون كافة هذه الأسطورة تتجلى في ممارساتهم، و(التحول الإيجابي للنساء) يحدث حقاً في عقول وحياة مرضاهم الأكثر توفيقاً. لا يُعدّ ذلك التحول سهلاً؛ إذ ينزع معظم المرضى - بغض النظر عن مدى الحماسة التي يظهرونها للعلاج النفسي في بادئ الأمر - إلى تركه، ما إن يُدركوا أنه سيتطلب منهم تحمّل المسؤولية الكاملة عن حالتهم وشفائهما. يختار أولئك في الحقيقة، أن يظلوا مرضى، وأن يلوموا الآخرين، عوضاً عن شفائهم وعدم توجيه اللوم لأحد. وفي المقابل، يجب - فيما يتعلّق بالأقلية من المرضى الذين يستمرون في العلاج - على المعالجين مواصلة (تدريبهم) على تحمّل المسؤولية الكاملة عن أنفسهم؛ لأنّ ذلك يمثّل جزءاً رئيساً من عملية شفائهم. يتطلب ذلك التدريب الكثير من الجِدِّ والعمل استناداً إلى أنّ المعالج يواجه المرضى - بصورة منهجية - بحقيقة نزوعهم إلى تجنب المسؤولية، ويفعل ذلك بصورة متكرّرة في الجلسات، والأشهر، والسنوات كلّها. وفي الوقت الذي يتدمّر فيه المرضى كأطفال العنيدون، فإنّ المعالج يُوجّههم إلى تحمّل المسؤولية الكاملة عن أنفسهم، لينجحوا في ذلك في نهاية المطاف. وفي السياق نفسه، يندر أن يخضع المرضى للعلاج، وهم مستعدون لتحمّل المسؤولية كلها منذ البداية. ويكون العلاج في تلك الحالة - على الرغم من إمكانية استمراره سنة أو اثنتين - قصيراً، وسلساً بصورة نسبية، ولطيفاً جداً في كثير من الأحيان، في نظر المريض والمعالج على حدّ سواء. وفي نهاية المطاف، فإنّ (التحول الإيجابي للنساء) يحدث بغض النظر عن مدى سهولته، أو صعوبته، أو طول أمده.

لا يجد مَنْ يواجهون مرضهم النفسي، ويتحمّلون المسؤولية الكاملة عنه، ويُحدِثون التغيير الضروري في أنفسهم لتجاوزه، لا يجدون أنّهم يشفون ويتحرّرون من (لعنات) طفولتهم وأجدادهم فحسب، بل يعيشون في عالم جديد ومختلف كلياً. يكتشف أولئك، إضافة إلى ذلك، أنّ ما كانوا يُعدّونه مشكلات في السابق، قد أضحت فرصاً في نظرهم الآن، وأنّ العقبات الكأداء باتت تُمثّل تحديات يُرحّبون بها، وأنّ الأفكار التي كانوا ينفرون منها باتت مفيدة لهم، وأنّ المشاعر التي كانت تحبطهم أضحت مصادر لتشجيعهم وتوجيههم، وأنّ ما كان يبدو عبئاً عليهم قد غدا هبات لهم، بما في ذلك الأعراض ذاتها التي برئوا منها. يقول أولئك، برتابة وتكرار، عند نهاية علاجهم بنجاح، إنّ: «اكتئابهم ونوبات قلقهم هما أفضل ما حدث لهم في الأوقات كلّها». وإذا افترضنا أنّ إيمانهم يَضعف مع إنهاء علاجهم، فإنّ أولئك الناجحين سيَشعرون حقّاً، أنّهم ما كانوا ليُحقّقوا ذلك من غير النعمة التي حلّت عليهم.

## مقاومة النعمة

لم يذهب (أوريستيس) إلى معالج نفسي، إنّما عالج نفسه. ولو افترضنا وجود أطباء نفسيين متمرّسين في اليونان القديمة، لوجب عليه معالجة نفسه أيضاً، استناداً إلى ما ذكرناه في السابق من أنّ العلاج النفسي لا يُمثّل سوى أداة (انضباط) لا أكثر. فالمريض هو صاحب الشأن في اختيار تلك الأداة أو رفضها، وهو مَنْ يُحدّد وحده - ما إن يختارها - المدى الذي يستخدمها فيه، والغاية من استخدامها. وفي الوقت الذي يتغلّب فيه بعض المرضى على ما يواجهونه من عوائق وصعوبات (مثل: قلة المال، والتجارب الفاشلة السابقة مع الأطباء أو المعالجين النفسيين، والرفض من الأقارب، والضيق الشديد من العلاج) في سبيل الخضوع للعلاج النفسي، والاستفادة منه بأكبر قدر

ممكن؛ يرفض آخرون الخضوع للعلاج، ولو قُدِّم لهم على طبق من ذهب، ولا يستفيدون منه شيئاً على وجه التقريب، في حال خضوعهم له بصورة فعلية، بغض النظر عن مدى مهارة المعالج ومحبته، وما يبذله من جهود. وفي حين يغريني الشعور بأنني مَنْ عالج المريض - حين يقارب علاجه على الانتهاء بنجاح - فإنني أعلم أنّ الحقيقة تكمن في أنني لا أمثل أكثر من أداة لنجاح علاجه، وأنّ الحظ قد حالفني لأكون كذلك. ولأنّ الناس يمكنهم شفاء أنفسهم، في نهاية المطاف، عن طريق العلاج النفسي أو من دونه، فلماذا ينجح القليل منهم في ذلك، ويفشل الكثيرون؟ لماذا يختار القليل من الناس سلوك طريق النموّ الروحي، المتاح للجميع، على الرغم من وعورته؟

كان ذلك هو السؤال الذي أجاب عنه المسيح حين قال: «يُستدعى الكثير، ولكن يُختار القلّة»<sup>(1)</sup>. فلماذا يُختار القلّة؟ ما الذي يُميّزهم عن الكثير من الناس؟ تستند الإجابة المألوفة لمعظم المعالجين النفسيين إلى الفكرة المتمثلة في اختلاف حدّة الأمراض النفسية.

وبكلمات أخرى، يعتقد أولئك المعالجون أنّ معظم الناس يصابون بالأمراض النفسية، وأنّ بعضهم يكون مرضه أشدّ منه لدى الآخرين، وأنّه كلّما استفحل مرض المرء، كان علاجه أكثر صعوبة. وبوجه عام، يمكن تحديد خطورة المرض النفسي مباشرة عن طريق تحديد المدى والتوقيت اللذين تعرّض فيهما المرء للحرمان الأبوي في طفولته. ويُعتقد أنّ المصابين بالذهان خاصةً افتقروا بشدّة إلى الرعاية الأبوية في التسعة أشهر الأولى من حياتهم، ناهيك عن أنّه يمكن التقليل من حدّة مرضهم بطريقة أو بأخرى، ولكن يستحيل أن يبرؤوا منه بصورة كاملة. أمّا المصابون باضطرابات الشخصية، فيُعتقد أنّهم تلقوا ما يكفي من الرعاية

1) Matthew 22:14; see also Matthew 20:16

حين كانوا رَضُعاً، ولكنهم افتقروا إليها بشدّة في المدّة التي تراوحت فيها أعمارهم بين تسعة أشهر وعامين، ما يجعلهم أقلّ مرضاً من الذهانين. ولكنهم حقيقةً يعانون مرحلة متقدّمة من المرض؛ ما يجعل علاجهم عسيراً جداً. وأمّا المصابون بالعصاب، فيُعتَقَد أنّهم تلقّوا ما يكفي من الرعاية الأبوية في طفولتهم المبكّرة جداً، ولكنهم افتقروا إليها في سن عامين إلى خمسة أعوام أو ستة، ما يجعلهم أقلّ مرضاً من المصابين بالذهان أو اضطراب الشخصية، ويُسهّل من علاجهم وشفائهم إلى حدّ بعيد.

تتسم المعطيات السابقة على وَفق اعتقادي، بقدر كبير من الصحة، وتُشكّل أساساً لنظرية طب نفسي تفيد الممارسين، بصورة كبيرة، بالكثير من الطرائق. ومع أنّه لا يسهل التشكيك فيها، فإنّني أعتقد أنّها لا تُفصح عن الصورة الكاملة. تُقلّل تلك المعطيات من الأهمية الكبيرة للرعاية الأبوية في مرحلة الطفولة المتأخّرة والمراهقة. ولكن، يوجد ما يكفي من الأسباب للاعتقاد أنّ الافتقار إلى الرعاية في هاتين المرحلتين يمكن أن يُسبّب أمراضاً نفسية، وأنّ توافر الرعاية فيهما قد يشفي الكثير من الجروح - وربّما جميعها - الناتجة عن الافتقار إلى الرعاية في الطفولة المبكّرة. أضف إلى ذلك، أنّه في حين تتجح تلك المعطيات - من زاوية إحصائية، في إطار ما هو عام من المعدلات - في الإشارة إلى أنّ علاج المصابين بالعصاب يُعدّ أكثر سهولة من علاج المصابين باضطراب الشخصية، وأنّ علاج الأخيرين أسهل من علاج المصابين بالذهان، فإنّها تفشل في تحديد مسار النمو ومدّته، بصورة جيدة، على الصعيد الفردي.

يُذكَر أنّ أسرع تحليل أجريته بنجاح تام كان لرجل مصاب بحالة حادّة من الذهان، انتهى علاجه في غضون تسعة أشهر لا أكثر، لأعمل ثلاث سنوات - في المقابل - مع امرأة مصابة بحالة اعتيادية من العصاب، وأعجز عن تحقيق ما يُذكَر من التقدّم معها.

يتمثل واحد من العوامل التي تُهملها المعطيات السابقة فيما يمكن تسميته لدى المريض، (بالإرادة للنمو). فمن الممكن أن يكون المرء مريضاً جداً، وأن يملك في الوقت نفسه (إرادة قوية جداً للنمو)، تشفيه من المرض الذي يعانيه. ومن الممكن أيضاً ألا تكون حالة المرء حادة، بأبسط ما يمكن توصيف المرض النفسي به، ولكنه يفتقر إلى الإرادة للنمو بما لا يجعله يتقدم قيد أنملة على صعيد الشفاء. لذا، أعتقد أن إرادة المريض للنمو تُشكّل عاملاً رئيساً للنجاح أو الفشل في العلاج النفسي، ولكن دور ذلك العامل لا ينال حقه من الفهم أبداً، ناهيك عن عدم الإشارة إليه من قبل نظرية الطب النفسي المعاصرة.

ومع إدراكي الأهمية القصوى لإرادة النمو، فإنني لست واثقاً من مدى قدرتي على تسليط الضوء عليها، استناداً إلى أن مفهومها يدخلنا في خانة الغموض مرة أخرى. سيكون من الواضح بصورة مباشرة، أن الإرادة للنمو تُماثل في جوهرها ظاهرة المحبة نفسها؛ إذ تُمثل المحبة استعداد المرء لتوسيع حدود ذاته في سبيل النمو الروحي. وينمو المحبون بصورة حقيقية، على وفق ذلك التعريف على الدوام.

تحدثت فيما مضى عن الكيفية التي تُعزز بها قدرة المرء على المحبة من قبل محبة والديه، ولكنني أشرت أيضاً إلى أن محبة الوالدين وحدها لا توجد هذه القدرة في البشر كافة. وقد يستحضر القارئ أن القسم الثاني من هذا الكتاب قد اختتم بأربعة أسئلة عن المحبة، سنتحدث عن اثنين منها الآن: لماذا يفشل بعض المرضى في الاستجابة لعلاج أفضل المعالجين وأكثرهم محبة؟ لماذا يتجاوز بعض المرضى طفولتهم التي تفتقر إلى المحبة بالقدر الأكبر، بمعونة العلاج النفسي أو من دونه، ليصبحوا محبين بصورة كبيرة؟

قد يستحضر القارئ أيضاً أنني ذكرت في حينه أنني أشك في قدرتي على الإجابة عن تلك الأسئلة بما يُرضي القارئ بصورة كاملة، ولكنني أشرت، مع ذلك، إلى أنه من الممكن تسليط الضوء - إلى حد ما - على تلك الأسئلة عن طريق البحث في مفهوم النعمة.

بِتِّ أعتقد، وأحاول أن أوضح، أن قدرة الناس على المحبة - واستعدادهم للنمو - لا تُعزِّز من محبة والديهم في طفولتهم فحسب، بل تُعزِّز طوال حياتهم عن طريق النعمة، أو محبة القدير. تُمثل تلك قوة كبيرة، تخرج عن نطاق وعيهم، وتعمل عبر لا وعيهم، والأشخاص المحبين من غير والديهم، وطرائق إضافية أخرى لا ندرك كُنْهها. أمَّا أثر النعمة في هذا الأمر، فقد تبين أنه يمكن للناس أن يتجاوزوا الصدمة الناتجة عن ضياع محبة والديهم، ويصبحوا محبين بصورة كبيرة، ويتطوِّروا بما يفوق والديهم إلى حدٍّ بعيد. ولكن، لماذا يتمكن نضر قليل فقط، من النمو والتطوُّر روحياً، بما يتجاوز الظروف التي عاشوها في طفولتهم؟ أعتقد أن النعمة متوافرة للجميع، وأننا نحاط جميعاً بمحبة القدير بلا استثناء. تتمثل الإجابة الوحيدة التي يمكن أن أقدمها في أن معظمنا يختار ألا يتنبه للنعمة، ويرفض المعونة التي تُقدِّمها. وتعني مقولة المسيح في ذلك السياق: «يُستدعى الكثير، ولكن يُختار القلة»، من وجهة نظري، أن «النعمة تناديا جميعاً لنحظى بها، ولكن القلة يختارون أن يلبوا نداءها».

لذا، يصبح السؤال الأكثر إلحاحاً هو: لماذا تختار قلة منّا تلبية نداء النعمة؟ أو: لماذا يقاوم معظمنا النعمة؟ تحدَّثنا في السابق عن أن النعمة تُوجِّهنا إلى مقاومة المرض - إلى حدٍّ ما - عن طريق لا وعينا. فما الذي يجعل معظمنا يضعف ويتقاعس، أمام المرض؟ سبق أن أجبنا عن هذا السؤال فعلاً؛ إنه كسلنا، خطيئة (الإنتروبي) الأصلية التي نُبتلى بها جميعاً. وكما أن النعمة تُشكِّل المصدر الأسمى للقوة التي تدفعنا إلى صعود

سَلَّم التطوُّر البشري، فإنَّ (الإنتروبي) تجعلنا نقاوم تلك القوة، ونبقى في الدرجة المريحة التي نشغلها، أو ننحدر حتى إلى مراتب أدنى من الوجود. وقد تحدَّثنا بصورة مطولة عن مدى الصعوبة في أن نضبط أنفسنا، وأن نحب بصورة حقيقية، وأن ننموروحياً. لذا، فمن الطبيعي أن نتراجع أمام الصعوبات.

وعلى الرغم من أننا قد تعاملنا مع أساس مشكلة (الإنتروبي) أو الكسل، فيجدر بنا أن نتحدَّث مُجدِّداً- بالتحديد - عن جانب مُحدَّد من المشكلة؛ مسألة القوة.

يُدرِك الأطباء النفسيون والكثير من الناس العاديين حقيقة أن المشكلات النفسية تحدث بصورة متزايدة وملحوظة، بعد وقت قصير من ترقية المرء لتولِّي مناصب أعلى للسلطة والمسؤولية. يُدرِك الأطباء النفسيون في الجيش أيضاً، المعتادون بصورة خاصة على مشكلة (عصاب الترقية) هذه، أنها لا تحدث بالصورة المتزايدة نفسها؛ لأنَّ أعداداً كبيرة من الجنود تنزع إلى رفض الترقية في المقام الأول؛ إذ يوجد الكثير من الضباط غير المفوضين الرائعين، من الرتب المنخفضة، الذين لا يرغبون ببساطة في أن يصبحوا رقباء، أو نقباء، أو عقداً. وتوجد أيضاً أعداد كبيرة من الضباط غير المفوضين الأذكياء أيضاً، الذين يقاومون ترقيتهم بشدة، ويرفضون بصورة مُتكرِّرة تدريبهم ليصبحوا ضباطاً، استناداً إلى ذكائهم وانضباطهم اللذين يؤهلانهم، كما يبدو، لذلك.

ينطبق الأمر نفسه على النموِّ الروحي انطباقه على الحياة المهنية، حيث يُمثِّل نداء النعمة ترقية إلى مناصب أعلى للسلطة والمسؤولية. ويُمثِّل إدراك النعمة، والإحساس بصورة شخصية بوجودها الدائم، ومعرفة مدى القرب من التقدير؛ يُمثِّل الإحاطة والإحساس بصورة متواصلة بالسكينة والسلم الداخليين اللذين لا يتمتع الكثير بهما. وفي المقابل، يترتَّب على

ذلك الوعي والإدراك الكثير من المسؤوليات؛ إذ تؤدي إحاطة المرء بمدى قربه من التقدير إلى أن يعمل على إعلاء كلمته، ونشر محبته في الأرض.

يُمثّل نداءُ النعمة نداءً لحياة المحبة التي تستلزم الجهد، والعطاء، والتضحية، ونداءً للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ على الصعيد الروحي، وللعِب دور الأبوة على الصعيد الإنساني. وصف (تي. أس. إليوت) المسألة جيداً في عظة عيد الميلاد التي ألقاها (توماس بيكيت) في مسرحية (جريمة قتل في الكاتدرائية): «فكّروا قليلاً في معنى هذه الكلمة (السلام). ألا يبدو غريباً بالنسبة إليكم أن تُعلن الملائكة العالم أرضاً للسلام، في الوقت الذي يُبتلى فيه على الدوام بالحرب، والخوف منها؟ ألا يبدو لكم أنّ الأصوات الملائكية تخطئ، وأنّ وعودها لم تأتِ إلّا بخيبة الأمل والخذاع؟».

لنتأمّل الآن في حقيقة أنّ التقدير قد تحدّث عن السلام، فقال مخاطباً عباده: «أمنحكم سلامي». هل كان السلام يعني على وفق منظورنا له أنّ مملكة إنجلترا تعيش بسلام مع جيرانها، وأنّ البارونات يعيشون بسلام مع الملك، وأنّ ربّ الأسرة يعيش حياة مثالية بسلام مع عائلته؟ لم يكن ذلك ما خبره عباده. فقد مضوا بعيداً في رحلتهم، وعانوا - في البحر، وعلى اليابسة - التعذيب، والسجن، وخيبة الأمل؛ ليموتوا شهداء. فما الذي كان يعنيه التقدير بالسلام إذن؟ إذا طرحتم هذا السؤال، فتذكّروا أنّه قال أيضاً: «ما أعطاكم من سلام يختلف عن السلام الذي يمنحه العالم لكم». ومن ثمّ، فقد منح التقدير عباده السلام، وهو يختلف عن السلام الذي يمنحه العالم<sup>(1)</sup>.

1) The Complete Poems and Plays, 1909–1950 (New York: Harcourt Brace, 1952), pp. 198–99

واستناداً إلى ما سبق، يترتب على سلام النعمة الكثير من المسؤوليات، والواجبات، والالتزامات التي تُسبب الألم. لذا، فليس غريباً أيضاً ألا يرغب الكثير من الرقباء المؤهلين في تولّي مسؤوليات الضباط الذين هم أعلى رتبة منهم. ولا عجب من أنّ المرضى لا يملكون الكثير من الحسّ - في خضمّ العلاج النفسي - بالقوة التي تنتج من الصحة النفسية السليمة.

شعرت امرأة شابة أعالجها من الاكتئاب الحادّ منذ سنة - وقد باتت الآن تحيط جيداً بالأمراض النفسية التي يعانيتها أقاربها - شعرت بالابتهاج ذات يوم لتمكّنها من التعامل مع موقف مرّت به مع عائلتها بحكمة، واتزان، وبراعة. خاطبته في ذلك الصدد قائلة: «يتملّكني شعور رائع إزاء ذلك الموقف في الحقيقة. أتمنى أن أشعر به على الدوام». أخبرتها بأنّ ذلك ممكن، موضحاً لها أنّ سبب شعورها بالروعة يعود إلى أنّها تعاملت مع عائلتها من موقع القوة للمرّة الأولى، ولأنّها باتت تحيط بطريقتهم المضطربة في التعامل، والملتوية في محاولتهم التلاعب بها كي تُنفذ رغباتهم التي تفتقر إلى الواقعية؛ ما مكّنها من التعامل ببراعة مع الموقف.

أخبرتها أيضاً بأنّها ستجد نفسها - في حين تصبح قادرة على التعامل بهذا الوعي مع مواقف أخرى - تتحكّم في مجرى الأمور، بصورة متزايدة، وستختبر ذلك الشعور الرائع بصورة أكبر. نظرت إليّ بما ينمّ عن شعورها بالرعب، قائلة: «ولكنّ ذلك سيتطلّب منّي التفكير طوال الوقت!». وافقتها في أنّ قدرتها ستتطوّر وتُصان عن طريق الكثير من التفكير، وأعلمتها بأنّها ستتخلّص بذلك من شعورها بالضعف الذي يُشكّل أساس اكتئابها. شعرت المرأة بالغضب، قائلة: «لا أريد أن اضطرّ إلى التفكير طوال الوقت اللعين! لم آتِ إلى هنا لأجعل حياتي عسيرة بصورة أكبر. أودّ أن أتمكّن من الاسترخاء لا أكثر، والاستمتاع بحياتي. هل تتوقع منّي أن أصبح امرأة

خارقة أو شيئاً من هذا القبيل!». أنهت تلك المرأة الذكية العلاج، بما يُثير الحزن بُعِيدَ ذلك، وقبل أن تشفى بمدة طويلة؛ من جزاء خوفها من متطلبات الصحة النفسية السليمة.

قد يبدو الأمر غريباً بالنسبة إلى الناس العاديين، ولكنّ المعالجين النفسيين يأنفون الحقيقة المُتمثلة في أنّ الناس يخافون عموماً من التمتع بصحة نفسية سليمة. وفي واقع الأمر، لا يتمثل جزء كبير من مهمة العلاج النفسي في جعل المرضى يختبرون تجربة التمتع بصحة نفسية سليمة فحسب، بل في منعهم أيضاً، عبر توليفة من التشجيع والطمأننة، من التهرّب من تلك التجربة ما إن يختبروها. يُعدّ ذلك الخوف، في جانبٍ منه، مشروعاً وصحياً؛ الخوف من إساءة استخدام القوة إن امتلكها المرء. وفي ذلك، كتب القديس (أوغستين)، قائلاً: «لو كنت محبباً ومجتهداً، فلربّما تفعل ما يحلو لك»<sup>(1)</sup>. لو تقدّم الناس في العلاج النفسي بما يكفي، لتخلّصوا - في نهاية المطاف - من شعورهم بالعجز عن التعامل مع العالم القاسي والطاغي، وأدركوا يوماً ما - بصورة مفاجئة - أنّ بإمكانهم عمل ما يحلو لهم. تُسبّب الإحاطة بتلك الحرية الرعب.

سيفكّرون قائلين لأنفسهم: «إذا كان بإمكاننا عمل ما يحلو لنا، فما الذي سيمنعنا من ارتكاب الأخطاء الفادحة والجرائم، والتخلّي عن أخلاقياتنا، وإساءة استخدام حريتنا وقوتنا؟ هل سيكون بمقدور محبتنا واجتهادنا وحدهما أن يتحكّما فينا؟».

إذا كانت الإحاطة بالقوة والحرية نعمة من القدير - كما هي الحال في الكثير من الأحيان - فإنّ المرء سيستجيب لها، قائلاً: «إلهي، أخشى أنّني لست جديراً بثقتك». يُشكّل ذلك الخوف بحدّ ذاته - بالطبع - جزءاً لا يتجزأ من محبة المرء واجتهاده، ويفيد في التحكم

1) 1 Jn. 7. Patrologia Latina, 35, 2033

في الذات؛ ما يحول دون إساءة استخدام القوة. ومع أنه لا يجدر بالمرء أن يقاوم خوفه، فإنه يتعين عليه - في الوقت نفسه - ألا يُضخِّمه كثيراً بما يمنعه من استغلال النعمة، وامتلاك القوة. قد يصارع بعض المرضى - ممَّن تتاديهم النعمة - خوفهم سنوات قبل أن يتمكنوا من تجاوزه، والتأكد من أنهم جديرون بامتلاك القوة. يُشكِّل ذلك الخوف والشعور بعدم الجدارة - حين يكون طاغياً بما يمنع المرء على الدوام من امتلاك القوة - يُشكِّل مشكلة عصائية قد يُمثِّل التعامل معها محوراً رئيساً، أو المحور الرئيس حتى للعلاج النفسي.

لا يُعَدُّ الخوف من إساءة استخدام القوة بالنسبة إلى معظم الناس، السبب الرئيس لمقاومتهم النعمة؛ إذ لا يصعب عليهم التعامل مع عبارة «فلربما تفعل ما يحلوك» من مقولة القديس (أوغستين)، بل مع عبارة «لو كنت محبباً ومجتهداً» بالأحرى. يُمَاثِل معظمنا الأطفال أو المراهقين حين نعتقد أنَّ امتلاك الحرية والقوة هما حقٌّ طبيعي لنا، ولكننا لا نكتث لما يترتب عليهما من مسؤولية وضرورة للانضباط الذاتي. والواقع أنَّ شعورنا بالكبت من والدينا، أو المجتمع، أو القدر غالباً، يُشكِّل حاجة فعلية لنا، لنلوم مَنْ يفوقنا، أو ما يفوقنا قوة على ما تؤول إليه حالنا. ولا شك في أنَّ الارتقاء لامتلاك القوة التي تمنعنا من لوم غيرنا يُعَدُّ أمراً مخيفاً. ومع ذلك، فكلما امتلكننا القوة بصورة أكبر، ازددنا قرباً من القدير، ما يُقلِّل من خوفنا. وفي الأحوال كلها، فإنَّ معظمنا يخاف من المسؤولية، ويرغب في الوصول إلى (السلام) من غير أن يسعى لامتلاك القوة التي تُمكنه من ذلك. يرغب معظمنا، إضافة إلى ذلك، في امتلاك الثقة المطلقة بالنفس من دون بذل الجهد للنمو.

تحدثنا بالكثير من الطرائق عن مدى صعوبة النمو؛ إذ يتقدَّم قلة من الناس بثبات وإصرار نحو مرحلة البلوغ الفعلي، وهم تواقون على

الدوام إلى تولي مسؤوليات جديدة وكبيرة. في حين يتقاعس معظم الناس على نحو يحول دون بلوغهم هذه المرحلة، ويعتريهم على الدوام الخوف من متطلبات البلوغ الحقيقي. ينطبق الأمر نفسه على النمو الروحي، الذي يُشكّل جزءاً لا يتجزأ من عملية النضج السيكلوجي؛ إذ يُمثّل نداء النعمة، في أسمى صورة له، نداءً للبلوغ بصورة فعلية. ويُعدّ من المألوف بالنسبة إلينا أن نرى في نداء النعمة المفاجئ ظاهرة رائعة. تُجسّد تلك ظاهرة مروعة بحسب خبرتي، في معظم الأحيان، وبصورة جزئية على أقلّ تقدير. وقد نستجيب في اللحظة التي نصغي فيها إلى النداء أخيراً، قائلين: «شكراً أيّها القدير»، أو: «إلهي، أنا لست جديراً بثقتك»، أو: «إلهي، هل يجب عليّ أن أحظى بتلك النعمة؟».

لذا، يمكن فهم حقيقة مقولة: «يُستدعى الكثير، ولكن يُختار القلّة» بسهولة، في ضوء الصعوبات المتأصلة في الاستجابة لنداء النعمة. وفي السياق ذاته، لا يتمثّل السؤال الذي نُواجه به في الآتي: لماذا يفشل الناس في تقبّل العلاج النفسي، أو الاستفادة منه؛ حتى لو كان بأيدي أفضل المعالجين؟ وبكلمات أخرى: لماذا يقاوم الناس النعمة بصورة متواصلة؟ (يُعزى ذلك، بصورة طبيعية، إلى قوة الإنتروبي)، بل على النقيض ممّا سبق: كيف يمكن لقلّة من الناس أن تُلبّي نداءً تصعب تلبيةه كثيراً؟ ما الذي يميّزهم عن معظم الناس؟ أعجز حقيقةً عن إجابة ذلك.

قد يأتي أولئك الناس من عائلات ثرية متعلّمة، أو فقيرة متخلّفة. ويُحتمل أنّهم غمروا أساساً بمحبة والديهم، ويُحتمل، بالأرجحية نفسها، أن يكونوا قد حرموا بشدّة من محبة الوالدين وعطفهم بصورة حقيقية. إضافة إلى احتمالية خضوعهم للعلاج النفسي بسبب صعوبات بسيطة في التكيف، أو ما هو حادّ جداً من الأمراض النفسية. وبعبارة أُخرى، فقد

يكونون كباراً أو صغاراً، وقد يُلبّون نداء النعمة حالاً وبوضوح، أو يقاومونها طويلاً من حيث لا يدرون، وبصورة مؤلمة.

لذا، وبناءً على خبرتي الطويلة، فقد أصبحت أقل انتقائية لمن سأقوم بمعالجتهم. وأخذت أعتذر - في بادئ الأمر - لمن استبعدتهم من العلاج بسبب جهلي، حيث لم أكتشف إلا بعد الكثير من التجربة أنه يستحيل التنبؤ - في المراحل الأولى من عملية العلاج النفسي - بمن سيفشل من مرضاي في الاستجابة للعلاج، أو سيستجيب بدرجة ملحوظة، ولكن جزئية، من النمو أو سينمو، بصورة إعجازية وفعلية، لئلبّي نداء النعمة. وقد تحدّث (المسيح) نفسه عن عدم إمكانية التنبؤ بالنعمة، حين خاطب (نيكوديموس)، قائلاً: «تُماتل الروح في غموضها الرياح تماماً؛ إذ يمكنك سماع صريرها، ولكنك تجهل من أين أتت، أو إلى أين ستتجه. لا نعرف مَنْ سيهبه القدير هذه الحياة من السماء لاحقاً»<sup>(1)</sup>. ختاماً، يجب علينا - على الرغم من كل ما قلناه عن ظاهرة النعمة - أن نُقرّ بطبيعتها الغامضة.

## ♦ الترحيب بالنعمة

نواجه في الحقيقة، بمعضلة التناقض مرّة أخرى. تحدّث في أقسام هذا الكتاب كلّها، عن النموّ الروحي بوصفه عملية منظّمة يمكن التنبؤ بها، وأشارت إلى أنّ المرء يمكن أن ينمو روحياً كما ينال شهادة الدكتوراه تماماً، حيث يمكن له - لو دفع رسومه الدراسية، وعمل بجدّ - أن ينجح بالتأكيد، ويحظى بتلك الشهادة. وفُسّرت أيضاً مقولة (المسيح): «يُستدعى الكثير، ولكن يُختار القلّة»، بأنّ نضراً قليلاً من الناس يُلبّون نداء النعمة لصعوبة القيام بذلك. وقد أشارت، في ذلك التفسير، إلى أنّ مباركتنا بالنعمة تُمثّل

1) John 3:8

أوردنا هذه الترجمة من (الإنجيل الحي): لأنّه يبدو أفضل في نظري من نسخة الملك جاييس.

خياراً لنا. وتمثّل ما كنت أقوله بصورة رئيسة، في أنّ النعمة تُكتسب، وأنا أثق حقيقةً بصحة ذلك.

أعلم في الوقت نفسه، بما يتصف بالتناقض، أنّ ما سبق لا يُعبّر عن حقيقة الأمور أبداً. فنحن لا نلتمس النعمة، بل هي التي تلتمسنا. وقد نحاول جاهدين أن نحظى بها، (لنتهرّب) منّا - مع ذلك -، ويمكن ألا نسعى إليها على الإطلاق، لتجد طريقها إلينا في الأحوال كلّها. وبالمثل، فقد نرغب، بقوة وبصورة واعية، في أن ننمو روحياً، لنجد أنّ العقبات جميعاً تعترض طريقنا، ويمكن ألا نرغب، بما يذكر، في النموّ الروحي، لنجد أنّنا ننمو بقوة على الرغم من عدم رغبتنا في ذلك. وفي حين يبدو - من جهة - أنّنا نختر حقاً تلبية نداء النعمة، يبدو واضحاً أيضاً - من جهة أخرى - أنّ التقدير هو مَنْ يختار لنا ذلك.

تثير تجربة مَنْ لبّوا نداء النعمة، الذين «وُهبت لهم هذه الحياة الجديدة من السماء»؛ تثير الدهشة فعلاً؛ إذ لا يشعر أولئك بأنهم سعوا إليها. وفي حين يمكنهم الإحاطة حقاً بطبيعتهم الخيرة على وجه الخصوص، فإنّهم لا يعزّون تلك الطبيعة إلى إرادتهم، بل يشعرون بوضوح بأنّها وُهبت لهم من قوة تسمو عليهم بحكمتها وقدرتها. أضف إلى ذلك، أنّ مَنْ يُلَبّون نداء النعمة بالقدر الأكبر يُدرِكون مدى الغموض الذي تتصف به.

فكيف لنا أن نحلّ معضلة التناقض هذه؟ لا أعتقد أنّ بإمكاننا ذلك. ربّما يتمثّل أقصى ما يمكننا فعله في قول إنّنا قد نُهيئ نفسنا بإرادتنا - في حين نعجز عن اكتساب النعمة بتلك الإرادة - لحلول النعمة الإعجازي علينا. ويمكن لنا فعل ذلك بجعل نفسنا بيئة خصبة مُرحبة بالنعمة. فلو تمكّنا من أن نصبح محبّين ومنضبطين انضباطاً كاملاً، لهيأنا نفسنا جيداً لحلول النعمة؛ حتّى لو كنّا نجهل اللاهوت، ولا نؤمن بالتقدير.

وفي المقابل، قد تُشكّل دراسة اللاهوت طريقة غير فاعلة لتهيئة نفسنا، وقد تكون عديمة الجدوى بصورة كلية. كتبت هذا القسم؛ لأنني أعتقد حقاً أنّ الوعي بوجود النعمة يمكن أن يفيد كثيراً من اختاروا القيام برحلة النموّ الروحي الشاقّة، ويُسهّل لهم تلك الرحلة بطرائق ثلاث على أقلّ تقدير: مساعدتهم على الاستفادة من النعمة دائماً؛ وتوجيههم بصورة جيدة؛ ومنحهم ما يحتاجون إليه من تشجيع.

تُشكّل المفارقة، المُتمثّلة في أنّنا نختار النعمة ونختار من قبلها، أساس ظاهرة (السرنديبية). وقد سبق تعريف (السرنديبية) بأنّها (موهبة إيجاد ما هو نفيس، أو يُسبّب السرور، عن طريق المصادفة)؛ إذ لم يرَ (بوذا) النور إلا حين امتنع عن التماسه؛ حين ترك النور يأتي إليه. ولكن، مَنْ يستطيع التشكيك في أنّ النور لم يأتِ إليه تحديداً، إلاّ لأنه كرّس ستة عشر عاماً من حياته - في الأقلّ - في التماس النور، وفي التهيؤ لحلوله؟ لقد وجب عليه أن يلتسمه، وألاّ يلتسمه في الوقت نفسه. فقد تحوّلت النساء المخيفات إلى حاملات النعمة، بصورة محدّدة أيضاً؛ لأنّ (أوريستيس) عمل على إرضاء الآلهة، ولم ينتظر منهم في الوقت نفسه، أن يُعبّدوا له الطريق. ومن ثمّ، لم يحظَ (أوريستيس) بهبة (السرنديبية) وبركة النعمة، إلاّ عن طريق التناقض نفسه من الالتماس وعدم الالتماس.

تتجلّى هذه الظاهرة بصورة اعتيادية، في الطريقة التي يُوظّف بها المرضى أحلامهم في العلاج النفسي؛ إذ يسعى بعض المرضى بقوة، ممّن يُدرّكون أنّ أحلامهم تتضمّن حلولاً لمشكلاتهم، إلى التماس تلك الحلول عن طريق تدوين أحلامهم كلّها بدقة - على نحو متعمّد وجادّ -، وإطلاع المعالجين عليها بالتفصيل. ومع ذلك، فإنّ أحلامهم لا تكون - حقيقةً - مفيدة لهم كثيراً، حتّى إنّها قد تعيق علاجهم؛ إذ لا يكفي وقت العلاج - من جهة - لتحليل تلك الأحلام كلّها، وقد يعيق تحليلها بتفاصيلها الكثيرة

- من جهة أخرى - العمل على مناح تحليلية مفيدة بصورة أكبر، ناهيك عما قد تتصف به من غموض بصورة غريبة، على الأرجح.

لذا، يجب توجيه أولئك المرضى إلى عدم البحث في أحلامهم، وتركها تأتي إليهم، وترك لا وعيهم يختار ما يلج إلى الوعي منها. قد يكون ذلك التوجيه بحد ذاته عسيراً جداً، ويتطلب من المريض أن يتخلى عن جزء من السيطرة، ويذعن بصورة أكبر للاوعي. ولكن، ما إن يتعلم المريض ألا يبذل جهداً واعياً في البحث في أحلامه، حتى يقل ما يتذكره منها، ولكن فائدته ستزيد بصورة مؤثرة. ستمثل النتيجة في أن أحلام المريض - هبات اللاوعي التي يمتنع المريض عن التماسها - ستسهل، بصورة رائعة، عملية الشفاء المطلوبة.

لو نظرنا إلى الوجه الآخر من العملة - في الأحوال كلها - لوجدنا أن الكثير من المرضى يخضعون للعلاج النفسي من دون أي إدراك أو فهم للفائدة الكبيرة التي قد تجلبها لهم الأحلام. ومن ثم، يعتمد أولئك إلى طرح الأحلام كلها من وعيهم، بوصفها غير مهمة وعديمة القيمة.

وفي السياق نفسه، يجب توجيه هؤلاء المرضى، في بادئ الأمر، إلى استحضار أحلامهم، ثم تقديرها والعمل على إدراك أهميتها. ويجب علينا - كي نوظف الأحلام بصورة فاعلة، أن نعمل على إدراك قيمتها، والاستفادة منها حين (تأتي إلينا)، والامتناع عن التماسها أو انتظارها أيضاً في بعض الأحيان. ويجب علينا أيضاً أن نجعل منها هبات حقيقية.

ينطبق الأمر نفسه على النعمة. فقد رأينا آنفاً أن الأحلام لا تمثل سوى شكل أو طريقة لحلول النعمة علينا. لذا، يجب استخدام مقاربة التناقض ذاتها مع الأشكال الأخرى جميعاً (الرؤى المفاجئة، الهواجس، مجموعة من الأحداث السرديبية المتزامنة). ويجب استخدامها مع المحبة.

يرغب الجميع في أن يكونوا محبوبين. ولكن، يجب علينا أولاً أن نجعل أنفسنا جديرين بالمحبة، وأن نُهيئ أنفسنا لتكون محبوبين. لا يحدث ذلك، في الحقيقة، إلا حين نكون محبّين ومنضبطين أيضاً. وإذا سعينا لأن نكون محبوبين - وتوقعنا أن نكون محبوبين - فإن ذلك لن يحدث، وسنصبح تابعين للآخرين ومتعطشين لمحبتهم، لا محبين بصورة حقيقية. ولكننا نصبح محبوبين حقاً حين ننمي أنفسنا والآخرين من دون انتظار العوائد، ونجد أن مكافأة المحبة التي لا نسعى إليها، تأتي إلينا من تلقاء نفسها، بما ينطبق على أنواع المحبة كلها.

يتمثل الغرض الرئيس لهذا القسم المتعلق بالنعمة في مساعدة مَنْ يمضون في رحلة النموّ الروحي على اكتساب قدرة (السرندية). دعونا نُعيد تعريف (السرندية) بأنها القدرة المكتسبة على تمييز النعمة التي تحلّ علينا، وتوظيفها من خارج نطاق إرادتنا الواعية. سنجد بوجود هذه القدرة، أنّ رحلة نموّنا الروحي تُوجّه من قبل حكمة القدير - التي نعجز عن الإحاطة بها - بدقة لا متناهية، بما يفوق حقاً قدرة إرادتنا الواعية العاجزة بالمقارنة معها، ويجعل هذه الرحلة أسرع على الدوام.

طُرحت هذه المفاهيم في السابق - بطريقة أو بأخرى - من قبل (بوذا)، و(المسيح)، و(لاو تسي)، ومن بين الكثير من الآخرين. وتتبع أصالة هذا الكتاب من حقيقة أنني توصلت إلى المفاهيم نفسها بصورة فردية في القرن العشرين.

لو التمستم قدراً أكبر من الفهم ممّا تقدّمه هذه النصوص الحديثة، لوجب عليكم بكل تأكيد، أن ترجعوا إلى النصوص القديمة. ولكن، لا تتوقعوا أن تجدوا فيها المزيد من التفاصيل. يوجد الكثير ممّن يرغبون - بدافع من سلبيتهم، وتبعيتهم، وخوفهم، وكسلهم - في أن يتم توجيههم على طول الطريق، بحيث تكون خطاهم آمنة ومريحة في أثناء ارتياده.

لا يمكن أن يتم ذلك ولا شك. فرحلة النموّ الروحي تستلزم الشجاعة، والمبادرة، واستقلالية الفكر، والفعل، والقرار. لذا، يجب على المرء - مع إمكانية الاستعانة بكلمات الأنبياء والعظماء من المفكرين - أن يقوم بتلك الرحلة وحده؛ إذ لا يمكن لأيّ معلّم أن يُوجّهك عبرها على الدوام، ولا يمكنك أن تجد وصفات سحرية جاهزة للقيام بها.

تُشكّل الطقوس، فيما يتعلّق بذلك الصدد، أدوات مساعدة على التعلّم لا أكثر، ولا تحيط بمسألة العلم برمتها. على سبيل المثال، فإنّ تناولك ما هو محلّ من الطعام، وتلاوة الأدعية قبل الإفطار، والصلاة أينما وليت وجهك، والذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد؛ لن يُمكنك من الوصول إلى وجهتك المنشودة. لا يمكن لأيّ كلمات أو تعاليم أن تُخلّص (المسافرين الروحيين) من ضرورة اختيار طرائقهم الخاصة، وسلوك مساراتهم الفردية - بما يتطلّب ذلك من جهد ومعاناة - عبر ظروف حياتهم لبلوغ أعلى درجات التطوّر.

وعلى الرغم من أنّنا قد نفهم تلك الأمور بحقّ، فإنّ رحلة النموّ الروحي تظلّ عسيرة جدّاً بما يحبطنا في كثير من الأحيان. وقد تكون الحقيقة المُتمثّلة في أنّنا نعيش في عصر العلم مفيدة من بعض النواحي، ولكنها تُسهّم من نواحٍ أخرى، في إثارة إحباطنا. والواقع أنّنا لا نؤمن بالمعجزات، إنّما بالمبادئ الميكانيكية للكون. وقد بتنا نعرف بفضل العلم، أنّنا نعيش على كوكب يتبع لنجم يهيم في مجرّة من بين الكثير من المجرات. قادنا العلم - في حين نشعر بالعجز أمام عظمة الكون الخارجي - إلى أن نكون صورة لذاتنا، تتمحور حول خضوعنا التام لقوى داخلية تخرج عن نطاق إرادتنا، وجزيئات كيميائية في دماغنا، ومكوّنات متضاربة مع اللاوعي فينا تُرغمنا على الشعور والتصرّف بطرائق معينة، في حين لا ندرك حتّى

ما نفعه. لقد أدّى استبدال أساطيرنا بالمعطيات العلمية إلى شعورنا، بما يُسبب المعاناة، بالافتقار إلى المغزى.

فما الغاية المحتملة من وجودنا، بوصفنا أفراداً أو جنساً، في حين تتحكّم وتلاعب بنا مواد كيميائية وقوى سيكولوجية داخلية لا ندرك كُنْهها، ولا نُشكّل ما يُذكر في كون فسيح الأبعاد بما يعجز علمنا حتّى عن قياسها؟ إنّ العلم نفسه، هو ما أعانني بطرائق مختلفة على إدراك حقيقة ظاهرة النعمة. وقد حاولت أن أنقل لكم ذلك الإدراك؛ إذ يتبدّد ما نشعر به من انعدام القيمة والأهمية ما إن ندرك حقيقة النعمة. وتؤدي الحقيقة المُتمثّلة في وجود قوة خارقة تتجاوز ذاتنا وإرادتنا الواعية، وتُعزّز نموّنا وتطوّرنا؛ صورة كبيرة إلى قلب مفاهيمنا عن انعدام القيمة الذاتية رأساً على عقب، حيث يُؤشّر وجود تلك القوة، ما إن نحيط بها بصورة مؤكّدة، إلى أنّ نموّنا الروحي الإنساني يُعدّ مهمّاً إلى أبعد الحدود لتلك القوة التي تسمو علينا؛ للتقدير بالأحرى.

لا يُدلّل وجود النعمة بصورة بديهية، على حقيقة التقدير فحسب، بل على أن إرادته مُكرّسة أيضاً لنموّ الروح البشرية. وبذلك يتحوّل ما كان يعتقد به بعضهم أسطورة إلى حقيقة واقعية ساطعة. فنحن نعيش حياتنا بصورة فعلية، وعين التقدير ترقبنا وترعانا. ومن المحتمل ألاّ يُمثّل الكون الذي نعرفه أكثر من ممرٍّ إلى مملكة التقدير. ولكننا نهيم في هذا الكون، ونشعر بالضعف أمام عظمته. وعلى النقيض من ذلك، تُشير حقيقة النعمة إلى أنّ البشر يقعون في مركز الكون. وقد تمّ إيجاد هذا الزمن والفضاء لنا كي نساfer عبرهما.

أخبر مرضاي أحياناً - حين يفقدون الإحساس بأهميتهم، ويحبطون ممّا يجب عليهم بذله من جهود في عملنا معاً - بأنّ الجنس البشري يسعى

للقيام بقفزة تطورية. أُخاطبهم في ذلك الصدد، قائلاً: «إنّ نجاحنا أو إخفاقنا في أداء تلك القفزة هو مسؤوليتكم الشخصية». إنّها مسؤوليتي أيضاً. وفي الختام، فقد خُلق هذا الكون، هذا الممرّ، لتمهيد الطريق لنا. ويجب علينا أن نسلكه واحداً بعد الآخر. وتعيننا النعمة على ألاّ نتعثّر، وتُظهر لنا الترحاب. فما الذي يمكننا أن نطلبه بعد؟

## ماذا بعد...؟

كنت محظوظاً بما يكفي، في الوقت الذي أعقب نشر الكتاب، لأتلقّى الكثير من الرسائل من قراء (الطريق الأقلّ ارتياداً). كانت رسائل رائعة، بليغة واضحة بلا استثناء، محبة جداً أيضاً. وقد تضمّنت في معظمها، إضافة إلى إظهارها التقدير، (هدايا) إضافية: أشعاراً رائعة، واقتباسات مفيدة من أعمال مؤلّفين آخرين، وأقوالاً حكيمة، وروايات لتجارب شخصية.

أغنت تلك الرسائل حياتي في الحقيقة. وقد تبين لي بوضوح وجود مجموعة كبيرة - أضخم بكثير ممّا كنت أعتقد - من الناس في البلاد، عملت بصمت، وقطعت أشواطاً طويلة في الطريق الأقلّ ارتياداً للنموّ الروحي. شكّرتني أولئك على ما أسهمت فيه من تقليل لوحدهم في تلك الرحلة. وأنا أشكرهم بدوري على الشيء نفسه.

وفي واقع الأمر، فقد شكّك بعض القراء في إيماني بفاعلية العلاج النفسي. وكنت قد أشرت فعلاً إلى أنّ المعالجين النفسيين يختلفون بشدّة. ولا أزال أعتقد أنّ معظم من يفشلون في الاستفادة من العمل مع المعالجين المؤهلين يخرجون بتلك النتيجة السلبية؛ لأنّهم يفتقرون إلى الرغبة في ذلك العمل الجادّ، والاستعداد له. وبوجه عام، فقد أغفلت حقيقة أنّ أقلية صغيرة من الناس - ربّما خمسة في المئة - لا تستجيب للعلاج النفسي

بطبيعتها، وأنَّ حالتها قد تسوء حتَّى من جرَّاء ما يستلزمه العلاج من فحص عميق للذات.

أستبعد كثيراً أن ينتمي مَنْ تمكَّنوا من قراءة هذا الكتاب وفهمه بصورة شاملة؛ إلى تلك الأقلية (الخمسة في المئة).

وعلى أيِّ حال، يتحمَّل المعالجون المؤهلون مسؤولية توجيه المرضى - الذين لا يرون فيهم قدرة على الخضوع للعلاج النفسي التحليلي - بصورة متأنية، وتدرجية أحياناً؛ لاستبعاد ذلك العلاج، وللخضوع لأنواع أخرى من العلاج الذي قد يفيدهم.

ولكن، مَنْ المعالج النفسي المؤهل لذلك؟ كتب لي عدد من قرَّاء الكتاب، الذين قرَّروا التماس العلاج النفسي، متسائلين عن الكيفية التي يجدر أن يختاروا بها المعالجين المؤهلين، ويميّزوهم عمَّن يفتقرون إلى الخبرة والكفاية. تتمثَّل نصيحتي بصورة مباشرة، في أن يتعاملوا مع مسألة الاختيار بمنتهى الجدِّ؛ إذ يُعدُّ القرار باختيار المعالج النفسي من أهم القرارات التي يمكن أن يتخذها المرء في حياته.

لا يُمثِّل العلاج النفسي استثماراً كبيراً لمالك فحسب، بل لوقتكَ الثمين وجهدك أيضاً. يُماثل ذلك ما يدعوه سماسرة البورصة «استثماراً عالي الخطورة». فلو اتخذت الخيار المناسب، لعاد عليك بالكثير من الناحية الروحية، بما لا يمكنك أن تتخيله. وعلى الرغم من أنَّ الخيار غير المناسب قد لا يُسبِّب لك الضرر بصورة فعلية، إلاَّ أنَّك ستخسر باعتماده المال، والجهد، والوقت الثمين الذي كرَّسته من أجله.

لذا، يجب عليك أن تُفتِّش جيداً، وأن تثق بحدسك؛ إذ يمكنك أن تستشعر، في لقاء واحد مع المعالج لا أكثر، إذا كان مناسباً لك. وفي حال لم يحدث ذلك بصورة فعلية، فادفع للمعالج أجره لقاء تلك الجلسة، وفتِّش

عن معالج آخر. لا تكون تلك المشاعر ملموسة عادةً، ولكنها قد تنتج من المؤثرات المادية البسيطة.

كنت مهتمًا جدًا بالحرب في فيتنام - حين خضعت للعلاج عام 1966م -، ومُشكِّكًا كثيرًا في أخلاقية التدخل الأمريكي فيها. وجدت في غرفة انتظار معالجي نسخًا من مجلتي (رامبارتس) و(نيويورك ريفيو أوف بوكس) الليبراليتين المناهضتين للحرب. تملّكني شعور جيد من جرّاء ذلك، حتّى قبل أن ألتقيه.

وَعَوَّدَ على بَدْءٍ، فإنّ ما يفوق ميول معالجك السياسية - أو سنّه، أو جنسه - أهمية، يتمثّل فيما إذا كان يهتم بأمرك بصورة حقيقية. يمكنك أن تستشعر ذلك سريعاً أيضاً على الرغم من أنّه لا يجدر بالمعالج أن يفركك بالتطمينات، أو أن يبالغ في إظهار لطفه. وحتّى لو كان المعالج يهتم بأمرك بصورة حقيقية، فإنّه سيكون حذراً أيضاً، ومنضبطاً، ومتحفّظاً عادةً. ولكن، يمكن لحديثك، مُجدِّداً، أن ينبئك بما إذا كان المعالج يُكِنُّ في داخله، على الرغم من تحفّظه، مشاعر المودة لك، أو يشعر بالبرود تجاهك.

ولأنّ المعالج سيعمد إلى مقابلتك لاتخاذ القرار بمعالجتك، فسيكون من المناسب لك تماماً أن (تقابله) بدورك. لا تمتنع عن سؤاله - إن كان الأمر يهمك - عن رأيه في مسائل، مثل: تحرُّر المرأة، أو الشذوذ الجنسي، أو المعتقد. يحق لك في الحقيقة، أن تحظى بما هو صادق، وصریح، ومتأنّ من الإجابات. وفيما يتعلّق بأنماط الأسئلة الأخرى (مدّة العلاج، وهل طفحك الجلدي، على سبيل المثال، مرده إلى أسباب جسدية نفسية)، يجدر بك أن تثق في المعالج الذي يخبرك بأنّه لا يملك إجابة عن أسئلتك، في حينه على أقلّ تقدير. والواقع أنّ مَنْ يُقَرِّونَ بجهلهم من المثقّفين والناجحين في أيّ مجال، يكونون الأكثر مهارة، وخبرة، وجدارة بالثقة.

لا ترتبط مزايا المعالج كثيراً بما يحمله من مؤهلات؛ إذ لا يمكن للمحبة، والشجاعة، والحكمة أن تُمنَح من أيّ جامعة. صحيحٌ أنّ مَنْ يحملون مؤهلات عالية من الأطباء النفسيين، قد خضعوا للكثير من التدريب والاختبارات العسيرة بما يكفي، في سبيل الحصول عليها، ولكن ذلك لا يجعلهم أفضل بالضرورة، بوصفهم معالجين، من أيّ دارس لعلم النفس، أو الاجتماع، أو الدين، أو حتّى في مستواه. ولكم أن تعرفوا أنّ اثنين من أفضل المعالجين الذين أعرفهم لم يتخرّجا في الجامعة حقيقةً.

يمكن للنصح أن يُشكّل أفضل طريقة لبدء البحث عن المعالج النفسي المؤهل. فإذا كان لديك صديق تحترمه، وخضع للعلاج بنجاح عند معالج ما، فلماذا لا تعمل بتوصيته؟ تتمثّل طريقة أخرى - يستحسن اللجوء إليها بصورة خاصة، إن كانت أعراضك حادّة، أو كنت تعاني أمراضاً جسديّة أيضاً - في بدء البحث بمعونة طبيب نفسي تحديداً. ومع أنّ الأطباء النفسيين يكونون عادةً، استناداً إلى تدريبهم الطبي، أكثر المعالجين كلفة، فإنّهم يكونون في الموقع الأفضل أيضاً لفهم حالتك بصورة شاملة؛ إذ يمكنك أن تسأل الطبيب النفسي - في نهاية الجلسة، بعد أن يكون قد حظي بفرصة الاطلاع على أبعاد مشكلتك - أن يحيلك إلى معالج أقلّ كلفة، إن كان ذلك ملائماً.

وبوجه عام، يعتمد أفضل الأطباء النفسيين إلى إحالتك إلى واحد من المعالجين المؤهلين على وجه الخصوص. ويمكنك أن تبقى مع الطبيب النفسي بالطبع، إن منحك شعوراً جيداً، وقَبِلَ بمعالجتك.

أمّا إذا كان وضعك المادي سيئاً، وتفتقر إلى التأمين الصحي الذي يغطي كلفة العلاج في عيادة خاصة، فسيتمثّل خيارك الوحيد في التماس العلاج في عيادات الطب النفسي التابعة للمستشفيات الحكومية؛ إذ ستُطالب بدفع رسم يُحدّد وفقاً لإمكاناتك، ويمكنك أن تطمئن تماماً إلى

كفاية مَنْ سيعالِجك. ومع أنّ العلاج النفسي في العيادات العامة لا يكون مكثّفاً إلى حدٍّ بعيد، وقد تكون قدرتك على اختيار معالِجك محدودة جدّاً، فإنّ العلاج هناك ينجح بصورة كبيرة غالباً.

ربّما تكون هذه الإرشادات مختصرة بما لا يروق للقراء، ولكنّ الرسالة الرئيسيّة تتمثّل في أنّه لا يوجد ما يعفّيك، استناداً إلى أنّ العلاج النفسي يستلزم إقامة علاقة ثنائيّة، وإنسانيّة، وقويّة، وحميمة سيكولوجياً، من مسؤوليّة الاختيار الشخصي للإنسان الذي يمكن أن تثق به لكي يُوجّهك. فقد لا يكون المعالج الجيد لشخص ما جيداً لشخصٍ آخر؛ إذ يختلف كلّ شخص، ومريض، ومعالِج عن الآخر. لذا، يجب عليك أن تعتمد - بما يناسبك بوصفك إنساناً يختلف عن الآخرين - على حدسك وحكمك الذاتي على الأمور. ولأنّ المسألة تتطوي على قدر من المخاطرة، فأتمنّى لك التوفيق بصدق. وأعبّر عن تقديري لك، في الحقيقة؛ لأنّ الخضوع للعلاج النفسي، بكلّ ما يتضمّنه، يستلزم شجاعةً من المرء.

إم. سكوت بيك

بليس رود

نيو بريستون، كون. 06777

مارس، 1979م